

شعراء اليهود

في الجاهلية وضد الإسلام

للدكتور أحمد محمد النجار

(١)

من تاريخ اليهود ببلاد العرب

يظنرنا منهج البحث في تاريخ هجرة اليهود إلى الجزء الشمالى الغربى من شبه الجزيرة العربية إلى الثبوت ، وسعنا ، من رواية تلك الأخبار التى تردت حول هذا التاريخ ، ما دام القصد إلى بلوغ الحقيقة التاريخية عن تلك الفترة التى طمست معالمها الروايات الشفهية ، مما قد يكون منقولاً عن مسالمة اليهود من جانب ، كما ألتى عليها ظلالاً من الشك والحيرة ما روى عنها فى بعض أسفار « العهد القديم » من جانب آخر .

ولقد اعتبر « العهد القديم » المصدر الوحيد لأخبارها التى لم تثبت فى وعى التاريخ المدون ، غير أن تلك الأخبار لم تسفر عن وجه الحقيقة المنشودة إلا إشارات لم تدل بوضوح ، أو روايات ممتزجة أحياناً بأساطير جرت بها ألسنة روايتها فى مرحلة البداوة وشيوع الأمية ، فغدت من التراث الشعبى الذى جمع فى عصور التدوين الأولى .

فالمنهج - إذن - يتطلب التوقف عند تلك المرويات والأخبار التى لم يثبت صدقها ولا كذبها . فأما ما نقل عن أخبار اليهود ، فقد روى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قوله فيهم : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » .

وأما ما روى عن بعض أسفار العهد القديم المتداول بأبدي الناس فى الشك والتحرج يقفان دون الاعتماد على تلك الروايات التى حشدها كتاب أخبار الأيام

وأسفار بعض الأنبياء مثل أرميا وحزقيال . وقد نتجاوز الشك في أخبار تلك الأيام الخالية إلى الحذر مما ترويه أسفار التوراة نفسها لأنها (كانت قد فقدت من المجتمع اليهودي لعدة قرون بحيث صار من المحتمل أن يكون نصها الذي كتبه (عزراً - عزير عند العرب - مختلفاً جداً عما أنزل على موسى ، فيين الرجلين ما يقرب من ألف سنة من الزمان (١) .

وأما إنها إشارات غير واضحة الدلالة ، فإن ما روى في « أخبار الأيام الأول » : (الإصحاح ٢٤) عن هجرة أولاد شمعون بن إسرائيل وتجوهم في المنطقة الجنوبية - غير كاشف عن المدى الذي بلغوه من تلك النواحي ، وقد (ساروا إلى مدخل جدور إلى شرق الوادي ليفتشوا عن مرعى لماشيتهم ، فوجدوا مرعى خصيباً وجيداً ، وكانت الأرض واسعة الأطراف مستريحة ومطمئنة ، لأن (آل حام) سكنوا هناك في القديم ... وجاء هؤلاء المكتوبة أسماءهم في أيام حزقيا ملك يهوذا ، (٧٢٦ - ٦٩٨ ق. م) وضربوا خيمهم (والمعونيين) الذين وجدوا هناك ، وحرموهم إلى هذا اليوم ، وسكنوا مكانهم ، لأن هناك مرعى لماشيتهم ، ومنهم من بنى شمعون ذهب إلى جبل سعير خمس مئة رجل .. وضربوا بقية المنفلتين من (عماليق) وسكنوا هناك إلى هذا اليوم (٢) .

والمعروف أن (آل حام) - ويقصد بهم كاتب الأخبار (الكنعانيين) كانت تحوم أرضهم (من صيدون - صيدا - حينما تجيء نحو جرار إلى غزة ، وحينما تجيء نحو سدوم ..) (٣) حتى قبل أن ينزل بها قوم لوط في الجنوب ، ولم يتجاوز بنو شمعون الأرض التي كانت لقبائل معان في أقصى الشمال الغربي للجزيرة العربية ، وجبل سعير الواقع في الجنوب على حدود (بادية صين) إلى الشرق ، وعلى حدود آدوم إلى الغرب ، حيث ضربوا بقية المنفلتين من (عماليق) .. والضباب يغشى هذه الصورة والغموض يحيط بهذه الإشارات أو الدلالات ، ومن أجل هذا وذاك اضطربت أقوال « دوزي » و « مرجليوث » وغيرهما في تحديد مكان تلك الهجرة

(١) الفكر الديني الإسرائيلي (ص ٢٣) .

(٢) أخبار الأيام الأول (الإصحاح الرابع من الجملة ٢٤ . . .)

(٣) سفر التكوين (العاشر من الجملة ١٩ . . .)

وزمانها . وقد رددوا لها تواريخ بين سنى ألف . وألف ومائتين ، وسبعائة
وسبع عشرة إلى ستائة وتسعين ، والتاريخ الأخير يحدد ملك « حزقيا » الذى حكم
بلاد يهوذا فى تلك الفترة (١) .

وبطل كذلك ما زعمه هؤلاء المستشرقون من أن اليهود سكنوا حينئذ بين
جهات يثرب ومكة معتمدين على أقوال الجغرافى (سترابو) الذى أورد أسماء قبائل
الجزيرة العربية . وسكنها بأقاليم وزعها على أساس مخالف للتقسيم الذى اصطلح
عليه أكثر الجغرافيين من عرب وغير عرب (٢) .

وأما إنها أخبار مدخولة بأساطير فإن الثقات من المؤرخين يرفضون ما روى
منها عن تلك الفترة التى غلبت عليها البداوة ، وقد ظل كثير من أحفاد العبرانيين
فى أرض يهوذا المرتفعة يتبعون حياة الرعى قبل أن يعرفوا الاستقرار وينتقلوا إلى
طور آخر من أطوار حياتهم ؛ كما رفض هؤلاء المؤرخون تلك القصص الشعبية التى
تناولت حياة اليهود فى محاولة منهم لبث مشاعر الإعجاب ببطولتهم واستبدادهم
بالأرض التى لم تكن لهم ، وغلبة أصحابها على أمرهم فى سرد ملحى تختلف فيه نسبة
ما هو أسطورة وما هو تاريخ واقعى (٣) .

وإذا استظهرنا بقانون الاحتمال والضرورة للوصول إلى الحقيقة أو ما يقرب
منها ، ونحن نتتبع سير الحركة التاريخية التى لم تحظ فى عصور التدوين الأولى بما
يكشف النقاب عن وجهها ، ويرزق غواشى الشك والغموض من حولها - فإنه
تقوم للباحث وسائل الاجتهاد القائمة على الفروض أو الاحتمالات المؤيدة بالحوادث
المصاحبة ، والأحوال السائدة ، والظروف الناشئة من الصراع بين القوى المؤثرة
فيها أو المتسلطة عليها ، ولعل من الاحتمالات القوية التى تقوم عليها الشواهد التاريخية
احتمال استمرار النشاط الرعوى والتجارى بين سكان تلك النواحي ، وقد سلكت
القوافل التجارية أو (قوافل التوابل) (٤) ، كما تسمى أحياناً ، طرقاً مشهورة ربطت

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب (ص ٢ وما بعدها) .

(٢) انظر تاريخ العرب العام لسيدىو (ص ٢٢)

(٣) الفكر الدينى الاسرائيلى (ص ١٢)

(٤) كان الغالب على السلع أن تكون من التوابل وخاصة البخور ثم توسعوا
فى تجارة السلع الأخرى مثل الصوف والحريز والوانى الزجاجية والطور
والخمور الخ ...

بين جنوبي الجزيرة العربية وبلاد الشمال في العراق وسورية وفلسطين منذ عهد داود وسليان ، مروراً من الجنوب بحضرموت إلى مأرب ومكة ويثرب وواحات وادي القرى وتيما إلى البتراء فبلاد كنعان وفلسطين وغيرها مما دخل في ملك سليمان الواسع . وقد صارت هذه الطريق مألوفة للتجار وحراس القوافل وغيرهم منذ ذلك التاريخ أو قبله ، وكانت تنشعب عند البتراء إلى شعبتين : تتجه أولاًها إلى غزة غرباً ، وترتفع أخراها إلى بصرى ودمشق شمالاً ، وكذلك امتدت طرق أخرى كانت تسلكها تلك القوافل كالتي كانت تتجه من الشمال مبتدئة من دمشق ونازلة نحو الجنوب مارة بتدمر حتى تبلغ وادي الفرات ، أو تتخذ سبيلها من « تدمر » نحو وسط الجزيرة العربية مجتازة بصرى والبتراء في اتجاه الواحات الشمالية حتى تبلغ يثرب ومكة الواقعتين على طرق القوافل . وكالطريق التي كانت تمتد من (العقير) الواقعة على الخليج العربي وتتفرع إلى فرعين كان أحدهما يتجه إلى اليمن ، والآخر يسلك قلب الصحراء إلى تيما ومنها إلى البتراء أيام حكم اليونان للمنطقة في القرن الرابع قبل الميلاد .

إذاً هي شبكة من الطرق التجارية تمتد في مساحات شاسعة من الصحارى التي شهدت حركة الرعي والترحل وراء الكلا والماء من جماعات البدو منذ كان العبرانيون في طور البداوة كغيرهم من أبناء إسماعيل (العرب) وأهل مدين ، وأصحاب ممالك آدوم وموآب وعمون ، وكانت طبيعة البدو فيهم جميعاً واحدة ، فإذا أجدبوا انتشروا في الأرض ابتغاء المراعى والمياه ، أو اعتدوا ليعيشوا ، ولذلك احتاجت طرق القوافل إلى من يحرسها ويحميها من غارات المغيرين الذين كانوا يترصدونها ، ويتحركون في اتجاهات سيرها .

ولما كانت البيئة الصحراوية ذات طبيعة مشتركة ، حتى اعتبرت تلك الوداى والصحارى امتداداً واحداً يصل بين أرجائها في الشمال والشرق والغرب - صارت حركة الرعاة نشيطة بهذه النواحي كلها ، وامتدت فسلكت مع الطرق التجارية إلى تلك الواحات الخصب التي صارت على مدى فترة طويلة من التاريخ مأوى لبعض القبائل اليهودية ، وربما كانوا من الرعاة في أول أمرهم ، ثم استقروا في تيما ووادي القرى وخيبر ثم يثرب وما حولها من أودية كهزور وبطحان ، وكانت تيما بخاصة ذات شهرة قديمة ، إذ يرجع العهد بها إلى القرن الثامن قبل الميلاد ، لأن

أهلها كانوا من ناجاهم أشعيا (٧٤٠ ق . م) بقوله :) هاتوا ماء للملاقة العطشان
ياسكان أرض تيماء ، وافوا الهارب بجزره ، فمنهم من أمام السيوف قد هربوا ،
ومن أمام السيف المسلول ، ومن أمام القوس المشدودة ، ومن أمام شدة الحرب (١) .

وقد تفيد هذه المناجاة استغاثته بأهل تيماء للأخذ بيد اليهود الهاربين من بطش
الأشوريين الذين ساموهم سوء العذاب ، فقد خربوا السامرة سنة ٧٢٢ ق . م ،
وهدموا أورشليم سنة ٧٠١ ق . م ، وسبوا منهم خيرة رجالهم ، ويعتقد أن الفارين
وجدوا في أرض تيماء مأوى لهم ، وبجبالا جديداً لمزاولة نشاطهم في الزراعة
والتجارة ، كما أنها صارت مهاجراً لهم من بين الأماكن التي نجوا فيها بأنفسهم
في المراحل التالية من تاريخهم الحافل بالأحداث التي غشيتهم ، وبددت جموعهم ،
ومن أبرز هذه الأحداث ما أصاب أورشليم من تخريب البابليين سنة ٥٨٦
ق . م ؛ (فقد بنى نبوخذ نصر (٦٠٥ - ٥٦٢ ق . م) عليها المدر للحصار ، وأقام
ثلاث سنين ، واشتد الحصار بهم فخرجوا هاربين إلى الصحراء ، واتبعهم العساكر
(الكلدانيين الذين منهم بختنصر) ولحق بعض من بنى إسرائيل بالحجاز فأقاموا مع
العرب (٢) وكان السبي البابلي المشهور أيضاً كارثة حلت بهم حينئذ ، فقد قدر عدد
المسيبين بنحسين ألفاً ، ولم يبق في مملكة يهوذا ، غير جماعة من البائسين (٣) .

وعندما شهدت الدولة البابلية الجديدة آخر أيامها كان يحكمها ملك يدعى
(نابونيدس) (٥٥٦ - ٥٣٨ ق . م) كانت تيماء بحيث تحتويها رقعة مملكته ،
وكان هذا الملك ولوعاً بالآثار ، وقد اتخذ منها مقراًه مدة من الزمن (٤) ، لأنها كانت
من أمهات القرى في ذلك الحين لوقوعها أيضاً ببلاد الحجر بالقرب من مدائن
صالح ذات الآثار العريقة التي لم تزال مجهلاً لم يكشف عنها التقاب ، وقد عثر في
تيماء على كتابة بالخط الآرامي تتحدث عن أهمية هذا المكان وركيه في ذلك العهد ،
كما عثر على آثار معبد قديم ، ومرفأة مدرجة تؤدي إلى بناء مربع لعله معبد من

-
- (١) سفر أشعيا (٢١ من الجملة ١٤ . .)
(٢) تاريخ ابن خلدون ١٠٦/٢١ وما بعدها .
(٣) تاريخ سورية ص ٢٢٠
(٤) تاريخ سورية ص ٢٣٩

معابد التوم بنى ذلك تلميذ (١) . . . ثم أبادر إلى إثبات تلك الملاحظة وهي أن دخول أخبار تلك النواحي عصر التاريخ المدون منذ عهد الإمبراطورية الرومانية قد أشاع جواً من الثقة في تلك المرويات على شروط التاريخ ، وقد عرفنا من المؤرخين القدماء المؤرخ اليهودي يوسفوس (٣٧ - ١٠٠ م) وهو الذى قيل عنه : إنه قلما يوجد اسم آخر غيره يستحق الذكر فى علم تدوين التاريخ فى سورية ، وقد ألف كتابي « تواريخ اليهود ، وحروب اليهود » باليونانية ، ثم ترجمها إلى الإنجليزية واعتمد عليهما كثير من كتب فى تاريخ سورية ، أو تاريخ اليهود ، أو السيد المسيح . ومما يستوجب الذكر والثناء أن هذا المؤرخ كان واحداً من المؤرخين (الأجانب) الذين نقل عنهم أخبار حروب اليهود مؤرخنا العربى الكبير ابن خلدون فى كتابه (العبر ودبوان المبتدأ والخبر) فقال :

(هذه الأخبار التى كانت لليهود ببيت المقدس ، والمملك الذى كان لهم فى العارة بعد جلاء بختنصر وأمر الدولتين اللتين كانتا لهم فى تلك المدة ، لم يكتب فيها أحد من الأئمة ، ولا وقفت فى كتب التاريخ مع كثرتها واتساعها على ما يلم بشيء من ذلك ، ووقع بيدي وأنا بمصر تأليف لبعض علماء بنى إسرائيل من أهل ذلك العصر فى أخبار البيت والدولتين اللتين كانتا بها ما بين خراب بختنصر الأول وخراب طيطش (تيطس) الثانى الذى كانت عنده الجلوة الكبرى استوفى فيه أخبار تلك المدة بزعمه ، ومؤلف الكتاب يسميه ابن خلدون (يوسف بن كريون) - جريون - الذى زعم أنه كان من عظماء اليهود وقوادهم عندما زحف الروم إليهم ، وأنه كان على صولة فحاصره أسبيانوس أبو طيطش . (٢) .

والخير بتمامه يؤكد أنه « يوسفوس » الذى قيل عنه : « إنه كان شاباً ذهب إلى رومة ليدافع أمام نيرون عن قضية بعض الكهنة من أبناء دينه ، ولدى عودته أصبح قائداً فى الجيش اليهودى فى ثورته ضد السيادة الرومانية ، وقد أسر ، إلا أن « فسباسيان » أنقذه (٣) .

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام ١٥٧/٤ وما بعدها .

(٢) تاريخ ابن خلدون ١٦٦/٢

(٣) تاريخ سورية ص ٣٥٣

وهذا يوافق نى جملته ما قاله ابن خلدون عنه ، ويزيد من قيمة تاريخ ابن خلدون ، ويصد عنه بعض عوادى النقد . وسنشر بالطمأنينة إذ نستعرض أخبار تلك المنطقة ونستجلى الحقيقة الممكنة منها ما أعانتنا النصوص التاريخية التي تحدثت عن أخبار اليهود وحركة الهجرة إلى المناطق المجاورة للأرض التي سكنوها أو استولوا عليها بالقوة على نحو ما تصوره أخبار أيامهم وقضاتهم وقادتهم وأنبيأهم ، وقد يعيننا الاجتهاد أيضاً على ذلك كلما دعت إليه ضرورة البحث فنقول :

إن ظهور الأنباط على مسرح الأحداث منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد كقوة مؤثرة في المنطقة ، ثم مسيطرة على ما كان يسمى ببلاد الحجرى الشمال الغربى مع ما احتلوه من بلاد آدوم وموآب وما جاورهما حتى دمشق - كان لتفجر تلك القوة آثار ظاهرة منذ أصبحت لهم عاصمة حصينة حفرت في قلب الصخور وكأنهم رأوا بعض آثار ثمود قوم صالح الذين (. . . كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين^(١) متخذين لمدينتهم اسماً يونانياً يفيد معنى الصخرة هو لفظ (Petra) واختاروا لها موقعاً ممتازاً يتحكم في طرق القوافل التي تربط بين الجنوب والشمال كما كان يسيطر على الطرق المتفرعة منها إلى غزة وبصرى ودمشق ، وإلى أيلة على الخليج الغربى والطريق الممتد عبر صحراء النفود إلى الخليج العربى في الشرق . حتى عظمت قوتها وازدهرت حياتها بفضل تمكنها من الاستقرار الحضارى القائم على الزراعة بتحويل جزء من أرض الصحراء إلى مناطق صالحة للاستنبات ، وما شاع عنهم من قدرة على الاحتفاظ بمياه الأمطار واستغلالها ، واستنباط المياه الجوفية إلى أن صاروا أصحاب مملكة في القرن الثانى قبل الميلاد أو سنة ١٦٩ على وجه التحديد . وعندئذ بدأ سير الأحداث يوجهونه تارة إلى مخالفة اليهود في عهد الأسرة المكابية ، ولم يدم ذلك طويلاً ، وتارة أخرى يوجهونه إلى إثارة القلاقل بينها . وقد دام ذلك بسبب ما كان يقع بينهما من تنافس وتباغض .

وسجل التاريخ أن (عبدة) أحد ملوكهم (في سنة ٩٠ ق.م) قد ألحق هزيمة بالملك المكابى (جنايوس) في معركة على الشاطئ الشرقى لبحر الجليل ، ثم خلفه (الحارث الثالث) (٨٧ - ٦٢ ق.م) الذى نال من جيش اليهود مراراً في أورشليم

حتى كان عهد (الحارث الرابع) (٩ ق - ٦٠ م) وفيه عظم شأن تلك المملكة ، وازدهرت مظاهر الحضارة وال عمران فيها حتى تودد إليه الحاكم الروماني (اليهودي الأصل) « هيرودس الصغير » وتزوج ابنته ثم ما لبث أن طلقها في قصة تحكي ، فشن الحارث عليه حرباً مظفرة كما يروى يوسفوس (١) .

تلك الحروب كلها وما وليها كانت سبباً قوياً من أسباب تسمية اليهود فيما بعد « بيهود الشتات » فقد زادت حركة الهجرة إلى حيث كانوا يرغبون في السعي بكل أرض (تفيض لبناً و عسلاً) إذ كان هذا وكدهم ودأبهم من قديم ، ولن ننسى ثورتهم على موسى وأخيه هارون عندما نال منهم الجوع والعطش في برية سينا خارجهن من مصر ، وقد تمنوا أن يعودوا إلى حيث كانوا ينعمون برغد العيش ، أو كما قالوا لها : (ليتنا متاً بيد الرب في أرض مصر ، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع ، فإثكما أخرجتما منا إلى هذا القفر لكي تبتا هذا الجمهور بالجوع (٢) كما كانوا يكون قائلين : (من يطعمنا لحماً ، قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله . مصر مجاناً ، والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم ، والآن قد يبست أنفستنا (٣) .

وبعد أجيال منهم لم ننس أنهم صحوا عن دعوة أنبيائهم الذين زينوا في قلوبهم حب العودة إلى أرض (المعاد) ، وكانوا قد سبوا فيها ، ولما مكثهم الملك الفارسي (كوروش) من العودة لم يستجب لها إلا (الذين لم تكن لهم جذور في الأرض الجديدة (بابل) : وقد عودنا اليهودي بكل زمان أنه إذا تمول واقتنى واغتنى بأى مهاجر فضل الإقامة فيه ، وإن كانوا قد حرصوا - وما زالوا يحرصون - على نقاوة « دمهم الأزرق » : دم الحياة والإيمان بزعمهم كما كان يفرسه في نفوسهم بعض قادتهم وأخبارهم تأكيداً لعقيدتهم العنصرية القومية .

ومن ثم وجدنا خط سير مهاجرهم كان يتجه في العالم القديم إلى مصر ، ثم إلى بعض المناطق المجاورة لأرض فلسطين ، في بلاد العرب ، وكانت شهرة مملكة الأنباط ورقبها الحضاري ، وخاصة في مجال الزراعة والتجارة - سبباً من أسباب هجرتهم إلى الأرض التي كانت تضمها هذه المملكة وتشمل منطقة الحرات الشمالية ،

(١) تاريخ سورية ص ٤٢٢

(٢) سفر الخروج (١٦ - الجملة الثالثة . .)

(٣) سفر العدد (١١ الجملتان ٤ ، ٥)

وكان يشقها طريق تجارة القوافل من الغرب إلى الشرق ماراً بواحة تيماء وماجاورها من مناطق كانت تتمتع بالخصب والخير ، فشدوا إليها الرحال في جماعات قليلة ، بول الأمر ، شرعت نزاول حرفة متعددة في الزراعة والتجارة والصناعة ، وهي الحرفة التي كان العربي في الصحراء يأنف من مزاولتها ، ويفضل عايش حياة البدو الخشنة بحتاً عن الماء والكأ ، أو العيش من وراء حراسة القوافل ، أو الإغارة للسلب والنهب ، فلما وقعت الواقعة بعد ظهور الروم على بلاد سورية وقمع ثورات اليهود المتعددة ضد حكمهم - امتاز عهد « نيرون » قيصر رومة بالبطش والتخريب ، فقد وكل إلى قائده (فسباسيان) واسمه (اسبنانوس في تاريخ ابن خلدون) مهمة القضاء على مقاومة اليهود ، ومحاصرتهم بأورشليم . ولما مات نيرون ملك البطارقة فسباسيان . . . وقد أراه مفيداً وطريفياً أن أنقل هنا الوصف الذي رواه ابن خلدون عن المؤرخ اليهودي (يوسف بن كريبون) شاهد تلك الأحداث الدامية إذ قال :

(وسار « اسبنانوس » إلى رومة ، وخلف نصف العسكر مع ابنه طيطوش ، وقد عظمت الفتن والحروب بين اليهود داخل القدس وكثر القتل ، ولما انسلخ الشتاء زحف طيطوش في عسكر الروم ، وركب إلى باب البلد يتخير المكان لمعسكره ويدعوهم إلى السلم ، فصموا عنه وأكمنوا له بعض الخوارج في الطريق فقاتلوه ، فعبى عسكره من الغد ، ونزل بجبل الزيتون شرقي المدينة ، ورتب العساكر والآلات الحصار ، واتفق اليهود داخل المدينة ، ورفعوا الحرب بينهم ، وبرزوا إلى الروم فانهزموا ، ثم عاودوا فظهروا ، ثم انتقضوا بينهم وتخابروا ، ثم اجتمعوا على مقاومة طيطوش فبرزوا إليه وردوه إلى قرب معسكره ، وبعث إليهم قائده في طلب الصلح فأصابوه بسهم قاتل ، فغضب طيطوش وصنع كبشاً^(١) وأبراجاً من الحديد توازي السور ، وشحنها بالمقاتلة ، فأحرق اليهود تلك الآلات ، وعادوا إلى الحرب بينهم ، فأعاد طيطوش الزحف بالآلات وثلم السور الأول وملكه ، فاصطلح اليهود بينهم وتدامروا واشتدت الحرب وبارها (طيطوش) بنفسه ، ثم زحف بالآلات إلى السور الثاني فثامه ، وتدامر اليهود فتمهروهم عنه ، ومكثوا كذلك أربعة أيام ، وجاء المدد من الجهات إلى طيطوش (وهنا يذكر أن مالكو الثاني آخر ملوك الأنباط أرسل

(١) الكبش جمع كبش والاصح الكبوش وهي آلات للحرب كانت تستعمل في الحصار لقتل الحصون .

في عام ٦٧م ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة لمساعدة تيطس في هجمه على
أورشليم^(١) . . . ثم إن اليهود لاذوا بالأسوار وأغلقوا الأبواب ، فدعاهم طيطوش
إلى المسألة فامتنعوا ، فجاء بنفسه في اليوم الخامس وجاء معه (يوسف بن كريبون)
قوعظهم ورجبهم في أمانة الروم ووعدهم ، وأطلق طيطوش أسراهم . فجنح الكثير
من اليهود إلى المسألة ، ولكن طال الحصار واشتد الجوع حتى رحمهم طيطوش ،
ورفع القتل عن مخرج في ابتغاء العشب ، ثم زحف طيطوش إلى السور الثالث من
أربع جهاته ونصب الآلات ، وصبر اليهود على الحرب وعظمت المجاعة فمات أكثر
اليهود ، وأكلوا الجلود والحشاش والميتة . فأصاب رؤساءهم لذلك رحمة وأذنوا
في الناس بالخروج ، وابتلع بعضهم في خروجه ما كان له من ذهب أو جوهر ضنة
به ، وشعر بهم الروم فكانوا يقتلونهم ويشقون عنها بطونهم ، وشاع ذلك في تربع
العسكر من العرب والأرمن ، فطردهم طيطوش ، وطمع الروم في فتح المدينة ،
وزحفوا إلى سورها الثالث بالآلات ، ولم يكن لليهود طاقة بدفعها وإحراقها فثلثوا
السور وبني اليهود خلف الثلثة فأصبحت منسدة ، وصدماها الروم بالكيش فسقطت
واستاتوا في تلك الحال إلى الليل ، ثم بيت الروم المدينة وملكوا الأسوار عليهم
وقاتلوهم من الغد فانزموا إلى المسجد وقاتلوا في الحصن ، واتصلت الحرب أياماً
حتى هدمت الأسوار كلها حتى سور الهيكل ، وأحاط العسكر بالمدينة حتى مات
أكثرهم وفر كثير ، وانقرضت دولة اليهود أجمع^(٢) « وزالت اليهودية كدولة
سياسية من الوجود وأصبح اليهود منذ ذلك الحين شعباً بدون وطن »^(٣)

والواقع أن اليهود قد عادوا إلى التجمع من جديد في أورشايم وتنادوا من
مهاجرهم حتى كثروا ، وعزموا على الانتفاض وأعلنوا الثورة في محاولة أخيرة
لاسترداد أورشليم في سنة ١٣٥ م بقيادة « سيمون بار كوخبا » ولكن المحاولة باءت
بالفشل الذريع ، وقعت الثورة بعد ممثلة بشعة^(٤) ، قمعها (هادريان) ويسميه
ابن خلدون « أندريانوس » . ودمر المدن والقرى التي لاذ بها اليهود ، وقد بلغ عدد

(١) تاريخ سورية ص ٤٢٢

(٢) تاريخ ابن خلدون ١٢٨/٢ وما بعدها يتصرف .

(٣) تاريخ سورية ص ٣٧٦

(٤) تاريخ العالم (سقوط أورشليم ص ٦٥٥ - ٤ تاريخ سورية ص ٣٧٧)

القتلى خمسمائة وثمانين ألفاً ، وعدد القرى التي دمرت تسعمائة وخمسة وثمانين (١) .
ونقل بن خلدون عن (هروشيوش) قوله : إن الحرب طالت بينه وبين اليهود ،
فخربوا كثيراً من المدن إلى عسقلان ثم إلى مصر والإسكندرية فانهزموا هنا
وزحفوا بعدها إلى الكوفة فأئخن فيهم بالقتل وخضد من شوكتهم ، وكان هذا
الحرب لثلاث وخمسين سنة من خراب طيطوش الذي هو الجلوة الكبرى (٢) .

ولعل هناك شبه إجماع على أن السبب الأكبر لهجرة اليهود إلى خارج فلسطين
يرجع إلى ملاحق بهم من ويلات الحروب ، وتوالي القرن منذ تخريب بختنصر
(٥٨٦ ق.م) إلى تخريب تيطس سنة ٧٠ م لمدينة أورشليم حتى فنوا أو كادوا ،
وقد قال قائلهم : (أى شعب يظل على قيد الحياة بعد هذه الآلام الطويلة المتصلة
وهذه الظامة الكبرى التي صار إليها أمره؟) إن من بقى منهم حياً كان من هذه القلول الهاربة
أو المهاجرة إلى كل ملجأ لا ذوا به يعيشوا في ظلال الأمن ، ومن أجل ذلك وجدناهم
في أرض مصر وشمالي الحجاز ، وفي العراق يزاولون نشاطهم في مجالات العمل
المتخلفة لا بألون جهداً في جمع المال وتملك الثروات يشتي السبل والحيل ، مع
احتفاظهم بخصائص شعبيهم تعصباً منهم وتزمتاً ، حتى أصبحوا جماعة مغلقة بكل
أرض حلوا بها .

وحيثما استقروا بهذه الحرات الشمالية من أرض الحجاز وجدناهم يتحركون فيها
منذ وجدوا بها في اتجاه المناطق الحصبة ، وقد اشتهروا بالزراعة والتجارة
ولذلك داروا مع هذه الحرات حتى بلغوا يثرب وماحولها دون أن يعي التاريخ الصحيح
أنهم توغلوا في الصحراء جنوباً فيما يسمى بالعربية الوسطى غير جماعات قليلة نزل
بعضها بمكة ، وحل بعضها بنجران ، وآخرون بالبحرين ، على ما تدل عليه
أخبارهم في الإسلام (٣) ، وربما زاد عددهم قليلاً بأرض اليمن ، لأنها كانت الأرض
السعيدة منذ عرفوها فيما يقال أيام ملك سليمان ، ومنذ ترددت الرحلات التجارية

(١) تاريخ سورية ص ٣٧٧

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢/٢٠٢ وما بعدها - وهروشيوش هذا هو المؤرخ الذي
قال عنه ابن خلدون انه مؤرخ الروم في كتابه الذي ترجمه للحكم المستنصر
من بنى أمية في الأندلس قاضي النصارى وترجماتهم بقرطبة ٢/٨٨
(٣) انظر فتوح البلدان (١/٨٧) وما بعدها .

بين الجنوب والشمال في فصلي الشتاء والصيف ، ولعله طاب لبعضهم المقام فأقاموا مستظليين بحماية الملك الحميري في أواخر القرن الخامس ، وكان قد تهود ، فغزت الحبيشة بلاده وقضت على دولته (سنة ٢٥ م) بطلب من (جوستنيان) الأمبراطور الروماني بالقسطنطينية .

تلك لحظة سريعة لتأريخ الوجود اليهودي ببلاد العرب فراراً وهجرة . أو رهباً ورغباً ، قدمتها بين يدي البحث في موضوع شعراء اليهود في الجاهلية وصدر الإسلام وفيه نزيد علاقتهم بالجزيرة وأهلها بياناً ووضوحاً .

(٢)

شعراء اليهود في الجاهلية

اطمأن اليهود إلى سكنى الواحات الواقعة في الشمال الغربي من بلاد الحجاز واختاروا منها أحياءها بالخصب والماء ، وأعلماها مكاناً ليشيدوا عليه آطامهم وحصونهم ، حيث كانوا قد ألفوا سكنى مثل هذه الآطام بأرض كنعان منذ احتلوها ، ثم تحولوا فيها من جماعات بدوية إلى مجتمع مستقر ، ولم ينقطع تسلمهم منذ الجلوة الكبرى إلى تلك النواحي في جماعات قليلة وأفراد وجدوا لهم مأوى في تلك المستوطنات المختارة على طرق القوافل ، والممتازة بالخصب ، والمنقطعة في الصحراء بعيداً عن أن تنالهم أيدي مضطهديهم من الرومان ، ولعل منطقة تيماء كانت من أول ما ارتادوا في تلك النواحي لمكانها ، إذ كانت على ما وصفنا ذات حضارة راقية ، وعمران ، وأدبية تجارية خاصة ، فطمعت بعض القبائل اليهودية كبنى هديل قوم السمؤل في أن تتسع لهم لممارسة أنشطتهم المختلفة في الزراعة والتجارة ، ومن ثم أنشأوا الأسواق لبيع غلات الأرض التي زرعوها ، والسلع التي يشترونها من القوافل ويعيدون بيعها بالثمن الربيع أو بالربا المضاعف مستغلين الظروف وحاجات البدو ، وخاصة عندما يصيبهم القحط ، فيثرون من هذا الطريق ، وينسطون سلطاهم بقوة المال وسعة الحيلة ، ولم تذهب عن اليهودي صفاته في ذلك الزمان إلى

الآن من أنه (شخص من الجنس العبرى مقرض أو مراب جشع ، ابتزازى ، أو تاجر يساوم كثيراً ، أو يتعامل بمكر ودهاء)^(١). كما لم تغب عنه تعاليم الكتبة والأخبار فى تشكيل سلوكهم وفق ما تقضى به الظروف والأحوال من غير ثبات أو جمود ، مع استمرار الشعور بتفوقهم ونقاوة عنصرهم ، وأنهم فوق هذا وذاك (شعب الله المختار) ... وقد حرصوا على تلك العقيدة فى البيئات الجديدة ، وعملوا على أن يساكنوا القبائل العربية النازلة حول مواطنهم بالتودد إليهم أول الأمر حتى تثبت أقدامهم ويصير لهم السلطان .

ولم يكن عجباً وهم بسبيل بلوغ هذه الأهداف أن يتطبعوا بما عليه العرب من طباع ، وأن يتظاهروا ببعض القيم والأخلاق التى درج عليها العربى فى مجتمعه بحكم البيئة من كرم وإباء ووفاء ، وأن يلبسوا مثلهم ، ويتكلموا لغتهم ، ويحالفوهم ، ويتخذوا منهم الأولياء والأنصار ، ثم تقوى الصلات بينهم عن طريق الجوار ، أو عن طريق التعامل وتبادل المنافع والاتجار ، أو عن طريق استخدامهم العرب كأيد عاملة ، حتى تهود بعضهم ، وتم التصاهر بينهم فى صورة زواج منفعة كان من ثمرته وجود طائفة من العرب المتهودين يقفون وراء أسوار الحصون ، وحول المزارع والمتاجر حراساً يدفعون عن القوم وأموالهم غارات الأعراب أيام الفتن والنجاعات ، بينما ظل العرب الوثنيون - وهم الكثرة - على دين الآباء والأجداد لا تستهويهم مظاهر التفوق والغنى عند اليهود .

وكذلك ذهب اليهود شوطاً آخر فى سياسة الاندماج فتسموا بأسماء عربية دون حرص ظاهر على الأسماء الموروثة ، وصار من أسمائهم : كنانة ، والربيع ، وكعب ، وزيد ، ووهب ، ونافع^(٢) الخ ، وقلما وجد من تسمى منهم بأسماء عبرية مثل : فنحاص (بنحاس) ، وزعوراً ، وعازر ، وشمويل ، ويهوذا ، وبرهام (إبراهيم) ، ضماناً للمعايشة فى أمن ، وإحكاماً لسياسة التقرب والاندماج . ومن أجل ذلك نعم اليهود فى مهاجرهم الجديد بالحرية ، وخاصة فى الأرض التى استبدوا بها ، وتكاثروا بالأموال والأولاد حتى لا يطمع فيهم طامع ، وأنسوا

(١) تعريف اليهود فى قاموس اكسفورد ونقله « الأهرام » بتاريخ ٧٣/٦/١٢
نقلا عن وكالة أ - ب .
(٢) انظر سيرة ابن هشام ٥١٤/١ وما بعدها .

إلى الحياة في نظام المستعمرات أو الأحياء المنعزلة أو (حارات اليهود) انقطاعاً عن الخالطة المنضيه إلى الانصهار ، أو خوفاً متوقفاً لأي سبب من الأسباب ، فقد كانوا يعاونون من (عقاة الاضطهاد) على مدى الأجيال . . .

والأصل أنهم كانوا حريصين على نقاوة ذلك « الدم الأزرق » الذي يجري في عروقهم إلا أن تضطربهم ضرورة من ضرورات الحياة ، ومن ثم راحوا يمارسون حياتهم على النحو الذي يريدون دنياً وديناً ، فكما أقاموا أسواقهم للبيع والشراء والرهن والتعامل بالربا ، ترددوا أيضاً على الأسواق العربية في وسط شبه الجزيرة وأطرافها ، وهذا هو السبب في وجود بعضهم في أماكن مثل مكة والطائف ونجران والبحرين . وأقاموا دور العبادة فكان لهم الكنيس والمدراس وهو بيت مدارسهم للتوراة . وتباحثوا في أمور دينهم ، وكان منهم جماعات الربانيين والأخبار أهل النظر والجدل ، وإن لم يكن لهم أثر واضح في نشر دينهم والدعوة إليه إيماناً بالسياسة التي أشرنا إليها ، وبالتقاليد الدينية التي كان المنسرون المتعصبون يثوبنها فيهم من قديم حتى شاع فيهم من اعتقد بأن لشعبهم خصائص لا يشاركهم فيها شعب ، ولا أصحاب دين آخر ، ومن هنا جاء احتقارهم لغيرهم من الناس ، واضطهاد الناس لهم ، فأووا إلى حصونهم خوفاً ، وإشارة القرآن الكريم للربانيين منهم تدل على أن يهود تلك النواحي كانوا يدينون بالتوراة والمرويات الشفهية التي تضمنتها (المشنا والتلمود والمدراش بكل ما تحتوي من (هلاخا) أي تشريع ، و (هجادا) أي قصص ، إذ كل ذلك مندمج في التوراة اندماجاً عضوياً^(١) . يقول الله تعالى : (لولا ينهائم الربانيون والأخبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبأس ما كانوا يصنعون)^(٢) وفي هذا رد على من زعم بأنهم لم يحافظوا على الشرائع الموسوية ، ولم يخضعوا لأحكام التلمود^(٣) .

وكما كان النظام القبلي هو السائد في المجتمع العربي سواء في البادية أو الحاضرة - ساد نظام الأسرة أيضاً في المجتمع اليهودي وعرف من قبائل بني إسرائيل : بنو النضير وبنو قريظة ، وبنو قينقاع ، وبنو هدد ، وبنو ثعلبة ، إلى آخر هذه القبائل

قديماً

(١) الفكر الديني الإسرائيلي ص ٢٥٢

(٢) سورة المائدة الآية ٦٧

(٣) انظر ما ذكره إسرائيل ولفسون في كتابه تاريخ اليهود ص ١٢٥ نقلاً عن

المؤرخ اليهودي الألماني جريتنس .

التي يجمعها لفظ « الشعب » على مثال ما كانوا يقرءون في التوراة (لأنك شعب
مقدس للرب إلهك ، وقد اختارك الرب له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين
على وجه الأرض) ، كما وصفهم الرب بأنهم (شعب صلب الرقبة) ، ومع أنهم
كانوا كذلك فقد آثروا السلامة من أجل تحقيق المنافع دون اللجوء إلى الحرب
والقتال ، ورغبوا في التقيية حتى لا يصيبهم ما أصاب آباءهم « بأرض المعاد » من
قتل وسبي وتشريد ، وبذلك أصبحوا بحق أحرص الناس على حياة ، ولو أدى ذلك
إلى دفع الإتاوة ، واستعمال أساليب التفرقة والخداع ، والإيقاع بين الناس بإثارة
البغضاء ، وإيقاد نيران الحروب بين القبائل من أولى البأس الشديد حتى تتفانى أو
تضعف فتفتر ثورتها عليهم ، ويتضاعل سلطانها أو مضايقتها لهم .

وسوف نرى صوراً من مظاهر الصراع ، « وجوار الثعالب » ، والتنافر ،
واستعمال أساليب الغدر والكيد مما كشفت عنه علاقتهم بالأوس والخزرج ، وقريش
وغطفان وغيرهم في الجاهلية والإسلام . وكانت النتيجة أن أفلح اليهودي في معايشة
عرب الصحراء ، ووجدناه يتنازل عن كثير مما ورثه عن الأسلاف في البيئات
المتحضرة التي عاشوا فيها قبل الهجرة إلى تلك الديار ، ويستغل قدراته في صناعة
ما يحتاج إليه البدوي ، ويبدو ماهراً في فنون الزراعة والصياغة ، وممتازاً في الكتابة
والحساب ، ومتعلماً لغة القوم إلى درجة الإتقان على مثال ما نجده في عصر متأخر
عن ذلك العصر (أيام دولة بني العباس) حيث أتقن الفرس لغة العرب وأدبهم
وصاروا أعلاماً فيها وأئمة . فلا غرابة أن ترى اليهودي يحاول أن يكون شاعراً يتكلم
بلغة العرب ، وينظم بها الشعر ، وينبج سبيلهم في التفكير والتصوير ، ويتحدث بمثل
حديثهم عن معاني الفخر والرثاء والهجاء والنسيب . يفعل ذلك امعاناً في التكيف
والتودد والمجانسة ليأمن من خوف ، ويعز من بعد ذل .

نتول هذا ونحن مقبلون على درس الشعر المأثور عنهم أو المنسوب إليهم لنرى
الرأي في موضوعاته ، ونقف على أساليب التقليد والتجديد فيه ، ونعلم مبلغ حظ
من الإجابة والصدق والجمال ، مع أن التاريخ الأدبي لم يع من أخبار
الشعراء اليهود في الجاهلية والإسلام إلا القليل ، وقد ترجع قلوبهم إلى فقدان الروح
الشاعرة فيهم وغلبة النزعة المادية عليهم ، كما ترجع قلة شعرهم إلى ضعف الباعث

القوى ، وفتور التأثر بالوقائع ، إذ كانوا يتأون عن خوض الحروب التي تعتبر من أقوى الدوافع على الإنشاد عند العرب ، وكثيراً ما احتدم الصراع بين الأوس والخزرج ، وتفاخر الشعراء وتهاجوا وثاروا وأثاروا حتى كثر شعرهم إبان هذا الصراع وبعده . دون أن نحس أثراً بارزاً لشعراء اليهود وقد كانوا حلفاء لكل منهما ، ولم يؤثر عنهم غير شعر في الحماسة والفخر ورتاء صرعاهم في الفتن والمكائد التي كيدت لهم ، والبيكاء على من قتل من حلفائهم والمجاء الذي ضاع أكثره ، والغزل التقليدي المأثور في مطالع القصائد . وقد نلحج مع قلة هذا الشعر اهتماماً بروايته في قول الجاحظ : (وقد أدركت رواة المسجدين والمربدين : ومن لم يرو أشعار المجانين ، ولصوص الأعراب ، ونسيب الأعراب ، والأرجاز العربية القصار ، وأشعار اليهود ، والأشعار المنصفة فإنهم كانوا لا يعدونه من الرواة (١) .

وهذا الرأي كاف في الدلالة على اهتمام الرواة بالشعر المنسوب إلى اليهود منذ عصر الجاحظ ، إذ كانوا يعدونه في مرتبة الأشعار المنصفة وغيرها من ألوان الشعر التي حظيت بإعجابهم مثل شعر المجانين ونسيب الأعراب وشعر الصعاليك . وليس يطعن في شعر اليهود ما أثاره بعض النقاد حوله كله أو بعضه من ملاحظات ترفضه ، أو تدعو إلى الخلل والاحتياط في روايته . وسوف نسلك طريقاً مأمونة العثار في دراسة هذا الشعر فنقف عندها روي عن الثقات أولاً من أمثال الأصمعي وابن سلام ، ثم ما ترددت روايته في أكثر من مصدر من مصادر التراث الأدبي كالحماسة لأبي تمام والبيان والتبيين للجاحظ وحماسة البحرى وعيون الأخبار والأغاني والأمالى . الخ .

فاذا بلغنا عصر الإسلام ، وكثير من شعرائهم الجاهليين أدركوه ولم يسلّموا - عكفنا على درس شعرهم الذي قيل بصدد الحوادث والوقائع التي ألمت بهم فيه ، ويعتبر شعرهم هذا الذي قيل في زمن البعثة منبت الصلة في موضوعه عن الشعر الذي قيل في الجاهلية ، بسبب تغير الظروف واختلاف المناسبات ، وإن كان ممتد الصلة بالدوافع الأصلية ، أو الكامنة التي دفعتم إلى قول هذا الشعر ، وتقليد

العرب فيه ، متأثرين (بالبنية) التي عاشوا فيها طويلاً ، والمجتمع الذي كانوا فيه جماعة لما طباعها وميراثها وسائر خصائصها التي حرصوا أن تكون لهم من دون غيرهم من الناس .

ولعل أبرز هذه الخصائص استشعار هؤلاء اليهود بأنهم أشد حرصاً على الاستمرار متكئين في بساتين قليلة ، فتجتمع كل أسرة أو قبيلة داخل قري محصنة ، مسورة بأسوار ، خوفاً من غزو الأعراب ، والتماساً للأمن في جميع الظروف واتباعاً لنظام الحياة الذي ساروا عليه منذ كانوا بأرض فلسطين يتخطفهم الأعداء أو يبغون بهم شراً ، وقد رأوا في هؤلاء الذين كانوا ينازلونهم تلك الحرات من عرب الجزيرة خطراً يهدد كيانتهم ، وتنقلب بهم الأحوال وخاصة في يثرب وما حولها ، وتظهر أولى الدوافع الحقيقية لقول الشعر إذ تتجلى فيه روح المدافعة والتحصن أيضاً بالكلام ، فكان الفخر هو الغالب على أغراض شعرهم بمحاولون به إظهار التجلد ، وبث الرعب في قلوب الناس الذين يظنونهم أعداء أو يتوقعون عداوتهم على مرور الأيام ، كما أرادوا به أن يحاطوا بسياج من الدعاية التي تبتى عليهم الشعور بأنهم صنف ممتاز عقيدة وتفكيراً وسلوكاً وغنى وسطوة ، وهذا سر تعلقهم بالفخر وحده في معظم هذا المأثور من الشعر ، والاحصاء يدل على أن السموك قد فخر بنفسه في أبياته التي أولها في رواية ابن سلام (١) :

إن حلمي إذا تغيب عني فاعلمني أنني عظيماً رزيت
وفي أبياته التي أولها :

وفيت بأدراع الكندي إني إذا ما ذم أقوام وفيت (٢)

كما فخر بقومه في أبياته المشهورة النسبة إليه ، وأولها :

إذا المرء لم يدنس من اللوام عرضه فكل رداء يرتديه جميل

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٢٣٦ ، وهي عن الأصمعية ٢٠ مع زيادة واختلاف لفظي يسير .

(٢) الأغاني ١١١/٢٢ ط بيروت .

فنحن كماء المزن ما في نصابنا كهام ، ولا فينا يعد بجيـل
وأسيافنا في كل شرق ومغرب بها من قراع الدارعين فلول
معودة أن لا تسل نصالها فتغمد حتى يستباح قـيـل
سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم وليس سواء عالم وجهـول
ثم زيد عليها ما طعن فيها ، وجرح نسبتها كلها إليه إلا أن أكثر الرواة على
رواية ما ذكرناه (١) .

وأبرز ما نلمحه في هذا الشعر دفاعه عن قلة عدد قومه في الأبيات الثلاثة الأولى
بينما العربي يفخر دائماً بالكثرة والنسل الذي يملأ أطباق الأرض ليكونوا أعز نفراً ،
وأقوى عصية كقول المرقش الأكبر :

ولنحن أكثرها إذا عد الحصى ولنا فواضلها ومجد لواثها (٢)
وقول أنيف بن زيان :

أبي لهم أن يعرفوا الضيم أنهم بنو نائق كانت كثيراً عيالها (٣)
وقول عبد الله بن رواحة :

إذا ندعى لثأر أو بـجـار فنحن الأكثرون بها عديداً (٤)
والشواهد كثيرة ، إلا أن السموئ يبرر لقلة العدد بأن الكرام قليل ، وقد صار
هذا القول أشبه بالأمثال ، ثم مضى يفخر فخراً تقليدياً على نحو ما يظهر في سائر
الأبيات ، وأبرز ما في هذا الشعر من تقليد قوله :

يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتظـول
وإلا فن أين يأتي اليهودي حب الموت ، وهم أحرص الناس على حياة ، ومن أجل
ذلك طبقوا ما قيل من أن « أكثر الناس قتلا هو الذي يبقى حياً » (٥) ، وكذلك

(١) انظر مصادرها فيما سبق ص ٢١ من هذا البحث عدا الديوان ط بيروت .

(٢) المفضلية ٥١

(٣) شرح الحماسة ١٦٧/١

(٤) جمهرة أشعار العرب ص ١٢٢

(٥) قصة الحضارة ٢/٣٢٧ (الشرق الأدنى) .

كانوا يفعلون أيام تمكنهم في الأرض واستبدادهم بالأمر ، واستقلالهم بمصادر الثروة ، فأكروهوا الناس حتى يكونوا خاضعين لهم بالقتل والتنكيل من يوم استولوا على أرض فلسطين في عهد « يشوع بن نون » إلى سائر عهود القوة والبطش .

وآية حرص السموئل على الحياة تغنيه مفتخراً بالحصن الذي كان يؤويه في أبياته والتي تمدح فيها بوفائه بأدرع امرئ القيس إذ يقول :

وفيت بأدرع الكندي إني إذا ماذم أقوام وفيت
وأوصى عادياً يوماً بأن لا تهدم باسموع ما بنيت
بنى لي عادياً حصناً حصيناً وماء كلما شئت استقيت (١)

وليس كالحصن والماء - في نظرهم - ما هو أحفظ للحياة .

على أن قصة هذا الوفاء - وإن كانت مشهورة - إلا أنها اتهمت بالتزوير والتزويد ، وإذا استبعدنا منها عنصر المبالغة ، وبقى أصلها ، صارت مقبولة وبذلك لا نسلب الرجل صفة الوفاء ، وهو الذي تنسبه بعض الروايات إلى « غسان » قوم أمه ، وكان المبرد يسميه (الغساني) (٢) ، ومن وراء ذلك : إنه إنسان ، ولعله جرى في ذلك مخالفاً عن حال قومه ومذهب أبناء جلدته ، وهو الذي استعان به امرؤ القيس ، لمقامه من غسان ، في أن يكونوا له عوناً لدى قيصر . ولا تصرفنا سهولة هذا الشعر وغيره عن روايته ، والثقة فيه ، فكم من شعر تميز بإشراق البيان روى لكثير من شعراء الجاهلية عندما يتفجر ينبوع الشعر من النفس سلسلاً لا يعكر صفوه حوشى الكلام ولا غريب الألفاظ ، أو التكلف الذي يذهب بمائه . . ثم إن هناك فرقاً بين ما يصدر عن شاعر متأبد في القفر ، وآخر مقيم بقرية ذات نخل وزرع ومياه ، ولها تاريخ حضارى ، وإشعاع روحى فيما قيل من أنها كانت (من المراكز التي يشيع منها التأثيرات التوحيدية التي كانت

(١) الأغاني ٢٢/١١١ ط . بيروت - وفي الكامل في التاريخ (٣٠٨/١) قال :
ويوجد بتيماء بشران عظيمتان يقال لاحدهما هداج وللأخرى وداج أحدهما بظاهر
تيماء والأخرى داخلها وكانت عظيمة .

(٢) الكامل ج ١ ص ٩٠

تظهر في المحيط العربي (١) ، كما كانت تعد «تباء» من أمهات القرى في صحراء النفود .

وفي فخر الشاعر اليهودي بنفسه تعبير عن ذاته وعن جماعته لأنه أقوى صلة بها من العربي في قبيلته ، ثم يبقى القول بعد ذلك تقليداً متبعاً للأنماط العربية في تلك المعاني التي تناولها الفخر بالنفس في قول أبي قيس بن رفاعة ، بعد مقدمة غزلية :

وذى ضغن كفت النفس عنه	وكنت - على مساءته - مقيت
وسينى صارم لا عيب فيه	ويعتني من الرهق النبيت
متى ما يأت يوم ، لا تجدنى	بمالي حين أتركه شقيت
ألين لحم وأفديهم بنفسى	مقارشة الرماح إذا لقيت
وأرهن في الحوادث كف بكري	لجارى في العظيمة إن دهيت
أراه - ما أقام - على حقاً	شريكى في بلادى ما بقيت (٢)

فتقليم أظفار ذوى الأضغان بالحلم من معاني العرب المتداولة ، والكف عن الشر مع القدرة والتسامح كذلك ، وهكذا سائر المعاني ، إلا أننا نقف قليلاً عند قوله :

وأرهن في الحوادث كف بكري لجارى في العظيمة إن دهيت

فرهن الولد البكر - ملاحظة - التعبير بالرهن - شبيه بالتضحية بالولد من أجل الوفاء بأدراع الكندي في قصة وفاء السمؤل ، وتمتد إلى القصة الدينية في التضحية بولد ابراهيم - عليهما السلام - وقد صدق ابراهيم رؤياً ذبحه إياه ، وقد ذكرت في القرآن كما ذكرت في التوراة .

ثم نعلم أن الشاعر دل على قومه (النبيت) وإذا كان كذلك فهو - إذاً - عربى من الأوس تهود . ولهذا دلالاته على ملامح صبغة عربية ، لها مذاق خاص ، تبدو في أساليبه وصوره ومعانيه . .

(١) تاريخ الأدب العربي لبلاشير ص ٦٢
(٢) طبقات ابن سلام ص ٢٤٢ والمقيت : القادر على الاساءة - والرهق : الحمق والجهل - والنبيت : هم الأوس - ومقارشة الرماح : اصطكاك بعضها ببعض عن التطلع - والبكر : أول الاولاد واكبرهم ذكراً كان أو أنثى - العظيمة : الداھية .

ويفخر بنفسه أيضاً درهم بن يزيد ، وهو أوسى ميهود (١) كذلك ، فيقول وقد وصل بين عزله الموجز وفخره :

هجرت الرباب وجاراتها	وهك بالشوق قد يطرح
يمانية نازح دارها	تقيم بغمدان لا تسبرح
لعمر أيبك الذي لا أميد	من إني لأعطي وأستفتح
وأدلج بالهجوم شطر الملبو	كحتي إذا خفت الخجدح
أمرت صحابي الكي يزاوا	فناوا قليلا وقد أصبحوا
أجدوا سراعاً فأفضى بهم	سراب بدويمة أفيح

وهنا لا فرق بين شعره وشعر أي عري وثى صلبية ، إذ يفخر لصاحبه الرباب ايمية المقيسة بقصر محمدان لا تريم ، وية لم لها ب حياة أبيها خترم إنه يخشى بأسه فيعطي ، بل إنه يستنصر به لشجاعته ، ولأنه زعيم قومه عند الوفادة إلى الملوك واصلا سير الليل بالنهار إلا نوماً قليلا في الصباح ، لأخذ عطاياهم بعد أن يكونوا قد اجتازوا المغاور في خفة حتى جمت الشمس وانتهى بهم السراب إلى قضاء رحب دون أن ينال منهم الجد والإسراع .

فهو فخر بالشجاعة وقرة البأس وركوب المخاطر وريادة القرم ، وكلها معان مكرورة ، وليس في الأبيات ما يدل على يهوديته المكتسبة ، فربما ألقاه إليها كما ألقاه غيره الظروف والملابسات ، ومع ذلك بقيت له سماته العربية الواضحة . كما ثبتت عروبة أبي الديال البلوي وسنيقته على يهودته المختلطة ، إذ هو من قبيلة « بلي » ، وكانت منازلها على مقربة من (تباء) وعرف أن فرعاً من تلك القبيلة ينسب إلى حشنة بن عكارمة رهط أبي الديال كان قد تهود ، عندما لجئوا إلى يهود تباء عائلين بهم بعد أن قتلوا ناساً من أبناء عمومتهم ، ولما أبي اليهود أن يدخلوهم حصونهم تهودوا ، وصاروا معهم بعد أن وثقوا فيهم ، وتبدو شاعرية أبي الديال وهو يتغنى بشبابه ، ويعلن عن الإعجاب بنفسه في معرض الحماسة والفخر ، سالكاً سبيل القدماء في التعبير عن صرف الهمة في تحصيل اللذة قبل فناء العمر ، شبر مبالين بلوم اللاتمات في شرب الخمر والاستمتاع بالنساء ، والإنفاق عن سعة في

الحمر يسحب إلى الندامى زقا ، ويشرب زقا ، وهو مع ذلك يسترجع ذكريات
شبابه ويخالطه شعور بالفخر ، وأعجاب بزهرة العمر فيما يدل عليه البيتان الأولان
وإذا انتقلنا إلى شاعر آخر يهودى صليبيه ، هو سعيه أخو السمؤل وجدناه
قد ذهب في الفخر بنفسه على طريقته الخاصة في التفكير والساوك عندما يقول :

ألا إني بليت وقد بقيت وإن لن أعود كما غنيت
إذا ما يتهدى حلمي كفاني وأسأل ذا البيان إذا عيبت
ولا ألقى على الحدثنان قومي على الحدثنان ما تبنى البيوت
أياسر معشري في كل أمر بايسر ما رأيت وما أريت
ودارى في مسلهم وفضري إذا نزل الألد المستيت
وأجتنب المقاذع حيث كانت وأترك ما هويت لما خشيت (١)

فهو لا يلوم قومه على ما يحدثونه إذ هم أقوىاء ، ولا يلوم من يروم العز ، ويصون
البيت ، وإنه لهذا يياسرهم في كل حال ، ويعينهم جهده ، أليس واحداً منهم وبيته
في خمي بيوتهم ، فلزمه أن ينصرهم إذا اعتدى عليهم خصم يذهب في خصومته
كل مذهب ، وفي البيت الأخير نلمح أثر اليهودية وخاصة المصراع الأخير (وأترك
ما هويت لما خشيت) . أما اجتناب المقاذع ، والعفة عن الكلمة العوراء فكثيراً
ما تمدح به شعراء العرب.

وأشبهه بشعر سعية شعر أخيه السمؤل في فخره بنفسه إذ يقول :

إن حلمي إذا تغيب عني فاعلمي أنني عظيماً رزيت
ضيق الصدر بالحيانة لا ينـ قمض فقرى أمانتي ما بقيت
رب شتم سمعته فتصامم ست ، وغى تركته فكفيت

فالحديث عن غيبة الحلم ، واجتناب هجر الكلام قد لهجا به وأضاف السمؤل
معنى الوفاء ليؤكده ما اتصف به وشاع عنه حتى قيل : أوفى من السمؤل . .
ثم ماذا ؟ رأيت إلى تكرار قافية التاء في شعر اليهود ؟ إن ما مر بنا قد غليت عليه

(٢) الأصمعية ٢٢ - والحدثنان : حوادث الدهر - أيا سر معشري : أعيينهم

تلك القافية ، وإننى أستشعر فيها - على الرغم من الفخر والحماسة - تماوتهم وتهاقتهم
وكأنى بهم ينظون على الذلة والمسكنة بسبب ما صنعت بهم الليالى والأيام .
فاذا تجاوزنا ذلك إلى شعر شاعر منهم أدرك الجاهلية هو الربيع بن أبي الحقيق
الذى شهد له النابغة بأنه أشعر الناس - فيما روى صاحب الأغاني (١) - وجدنا
من شعره فى الجاهلية - وقد أدرك الإسلام - قوله مفتخراً بقومه :

سائل بنا خابر أكفائنا	والعلم قد بلغ لدى السائل
إنا إذا مالت دواعى الهوى	وأنصت السامع للقائل
واعتلج القوم بألبابهم	نقضى بحكم عادل فاصل
لا نجعل الباطل حقاً ولا	نلظ دون الحق بالباطل (٢)
نخاف أن تسفه أحلامنا	فندخل الدهر مع الخامل

وقد روى ابن سلام هذه الأبيات للربيع بن أبي الحقيق ، ورواها صاحب
الأغاني لسبعه (٣) ، ولعلك معى فى أن الثقة بما يرويه ابن سلام أتم وأقوى ، وفى الأبيات
فخر من يستعلى بدينه فى قوله و :

إنا إذا نحكم فى ديننا
وفىها اعتراض من يسترشد بالعقل عند تصارع الأهواء ، ومن يحكم بالعدل إذا
ارتضى الناس منهم حكم دينهم ، ومن يثبت على الحق لا يعدوه ولا يبدله ، ومن
يخشى أن يتهم بالسفه فيحمل ذكره مع الخاملين ، وكأنه يعرض بالأزد الذين ظلوا
دهرم قبل الإسلام يتنابدون بالخلاف ، ويحتكمون فى طيش إلى السيوف ، ولا بد
أنه كان لليهود ضلع فيما كان ينشأ بينهم من صراع ، ومن ثم أووا إلى مخالفة
الأقوياء ، عندما وقفت بنو قريظة وبنو النضير إلى جوار الأوس ، وظهرت
بنو قينقاع الخزرج فى حروب « فارع » « والرعل » « وبعاث » ، وكان اختلافهم
فى مظاهرة هؤلاء وهؤلاء بسبب ما كانوا يبتغون من عرض الدنيا - كما قال ابن
هشام (٤) - وكان ذلك مما حز فى نفس الربيع بن أبي الحقيق الذى أبدى سخطه

(١) الأغاني ١٢١/٢٢

(٢) لا نلظ دون الحق بالباطل : أى لا نلزم الباطل .

(٣) طبقات ابن سلام ص ٢٣٧ ، والأغاني ١١٤/٢٢

(٤) سيرة ابن هشام ٥٤٠/١

على ما كان يقع بين أبناء دينه من خلاف وتعارض في تحصيل المنافع وكان مما قال في ذلك :

سُمت وأُسميت رهن الفِرا
ومن سفه الرأي بعد النهي
فلو أن قومي أطاعوا الحل
ولكن قومي أطاعوا السفه
فأودى السفه برأى الحل
ش من جرم قوم ومن مغرم
ورمت الرشاد فلم يفهم
يم ولم يتعد ولم يظلم
به حتى تعكظ أهل الدم (١)
يم فانتشر الأمر لم يبرم (٢)

وتلك حال تناقض الحال الأولى التي افتخر فيها بالرشاد والعقل والعدل والثبات على الحق ، كما تنبئ عن تبدل ظاهر فيما كان لليهود من سلطان ، وخاصة بعد أن أوقع بهم (مالك بن العجلان) الخزرجي الذي استنصر عليهم بأبي جبيلة فسار إليهم في جمع من جنده ، ومكر باليهود في (ذى حرض) عند أحد ، وكان قد نبى « حائرا » به ، وتصيدهم فيه ، وأفتى منهم من أفتى ، ثم أثنى فيهم « مالك » من بعد ذلك عندما وجدهم لا يفتأون يقيمون على معارضتهم وسناوتهم وكيدهم ، وقد تفسر الحملة على اليهود بسبب ما كانت تسعى إليه الدولة الرومانية من القضاء عليهم ، وملاحقتهم بكل أرض ، وخاصة بعد ما أوقع الملك الحميري (تبان أسعد) الميهود بنصارى نجران ، ومن ثم صار أمر اليهود إلى الضعف والذلة والخوف حتى (جعلوا كلما هاجهم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم إلى بعض كما كانوا يفعلون قبل ذلك . ولكن يذهب اليهودى إلى جيرانه الذين هو بين أظهرهم فيقول : إنما نحن جيرانكم ومواليكم ، فكان كل قوم من يهود قد بلخثوا إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم) (٢) .

ولعل تلك الحال التي صاروا إليها لم تخفف من صلف اليهودى الجموح (كعب ابن الأشرف) وقد عاش في الجاهلية مناوئا ، وعاش في الإسلام كذلك فضى يفخر بخاله الذى تولى تربيته ، ونكاد نحس استعلاءه على العرب واليهود معا لمكانته

(١) تعكظ أهل الدم : تحبسوا لينظروا في أمورهم .

(٢) البيان والتبيين ٣/٢٢٩ والأغانى ٢٢/٢٢١

(٣) الأغانى ١٠٢/٢٢ وما بعدها .

من هؤلاء وهؤلاء ، فقد اجتمع له النسب إلى طى والنضير ، ولأنه كان في
أحواله سيداً ، وبهم معتزاً ، جاء فخره بخاله نوعاً من المقاومة في وجه العاصفة
التي هبت ريحها عليهم ، وكان خيراً ما في خاله هذا من الصفات ما يلائم تلك الحال ،
فهو رائع المنظر ، فيه خيلاء ، وفي مشيته سهولة ومرح ، وفي نفسه إباء وأنفة
كأشد ما يكون الإباء والحمية ، وهو مع ذلك لين الجانب موطأ الأكتاف لأقاربه
عنيف البطش بالأعداء ، والحق أن كعباً أجاد رسم هذه الصورة على الرغم
من تركيبها في قوله :

رب خال لي أبصرته سبط المشية أباء أنف (١)
لين الجانب في أقربه وعلى الأعداء سم كالذعف (٢)

ثم انتقل إلى الفخر بغناهم جميعاً ، وكان الماء الكثير العذب ، والنخيل
الوافر المثمر أعظم الثمر خيراً ما يتمولون ، وقد تصور التمرة كالكف
وتخيل صرير البكر عند نزول الدلاء وارتفاعها غناء يصاحبه ضرب بالدفوف
وكان في تخيلة وتصوره مجيداً كذلك إذ قال :

ولنا بئر رواء جملة من يردها باناء يغترف...
تدلج الجون على أكتافها بدلاء ذات أمراس صدف...
ونخيل في قلاع جملة تخرج التمر كأمثال الأكف...
وصرير في محال خلت به آخر الليل أهازيج بدف (٣)

والمعتقد أن عربته التي جاءت من نسبه في طى ، ومناقضاته مع حسان وغيره في
الحروب التي وقعت بين الأوس والخزرج ، كانت من أسباب إجادته . ولكن
هيات هيات أن تبدل الحال ، وأن يغير كعب وأمثاله ما استشعره اليهود من

(١) سبط المشية : في مشيته سهولة وتدفق وخيلاء .

(٢) طبقات ابن سلام ص ٤٣٨

(٣) طبقات ابن سلام ص ٢٣٨ - والأغاني ١٢٥/٢٢ - البئر الرواء الكثيرة
المروية العذبة - الجون : الأبل السود أو البيض . الأمراس الصدف : الجبال
المفتولة - المحال جمع محالة وهي البكرة العظيمة يدور عليها جبل الدلو التي
يستقى بها .

الهوان بعد الذلة ، والضعف بعد القوة ، وقد آذنت شمسهم بالأفول ، ومن ثم وجدناهم يلجئون إلى الرثاء والبكاء ، وفي الرثاء ثناء على من مات ، وتعداد لما أثره وفخر بسجاياه ، وبه يتم استرجاع ذكريات مجده ، واستنهاض المهتم عند من عاش من بعده ، فهم يفخرون أيضاً عندما يرثون ، وإن اختلف الانفعال بسطاً وقبضاً ، تفاؤلاً وتشاؤماً ، فرحاً وترحاً ، إلا أن الحماسة تجمعهما والإعجاب مما يتغنى به الفاخر والرأى الذى لا يقصد شخص المرثى بقدر ما يبكى مأساة الجماعة التى ينتمى إليها ، واللوعة على الغابر الذى قدمات ، والخوف من المجهول المتوقع ، كما نمثله في رثاء سارة القرظية لمن قتلهم أبو جبيبة الغساني إذ تقول :

بنفسى أمة لم تغن شيئا	بذى حرض تعفيا السرياح
كهول من قريظة ألتفتها	سيوف الخزر جية والرماح
رزينا والرزية ذات ثقل	يمر لأهلها الماء القراح
ولو أربوا لأمرهم لجالت	هنالك دونهم جاوا رداح ^(١)

فهي تبكى أمتها التي لم تعد تملك من أمرها شيئاً أوتدفع عنها رزمت به ، وهي جزعة لأن قومها لم يتدبروا الأمر قبل وقوعه ، ولم يفتنوا لما يبیت لهم ، وقد زعمت أنه كان لهم من القوة والعتاد ما كان يحميهم لو أنهم بصروا بأمرهم ، ولكنه تمنى الغافل الذى لا يستطيع أن يدفع عن نفسه القضاء النازل ، وقد يصور تلك الحال التي صاروا إليها قول الربيع بن أبي الحقيق :

ومن يك غافلا لم يلق بؤسا	ينخ يوماً بساحته القضاء
تعاوره بنات الدهر حتى	تثلمه كما ثلم الإناء
وكل شديدة نزلت بحى	سيأتى بعد شدتها الرخاء
وبعض خلائق الأقوام داء	كداء الشيخ ليس له دواء ^(٢)

على أمل أن تتبدل الحال إلى ما هو خير ، ولكن بعض خلائق قومه أصبحت تستعصى على العلاج ، فهو يبكى مع الباكين غابر المجد وسوء المنقلب ، ومن ثم

(١) الاغانى ١٠٢/٢٢ وما بعدها - وذو حرض هو وادى المدينة عند احمد والكتيبة الجاواء : الكثيرة الدروع وقد تلونت بلون صدا الحديد من طول الفزرو - ورداح أى ثقيلة عظيمة .

(٢) البيان والتبيين ١٨٦/٣

راحت تعاوده غريزة الخوف مما عساه تصيبهم به بنات الدهر وشدائده ، ومما يمكن أن تحدثه في نفوسهم من آثار لا تزول ، وكسور لا ترم ، ولكنه حاول جاهداً أن يخفف من وقع هذه الشدائد ، فكل عسر إلى يسر فيما يتوقع من الأحداث .

حتى من رثى منهم نفسه عندما أحس دنو الأجل ، كان بمنزلة من افتخر منهم بنفسه وإن كان الرأى يشيح جواً من الحزن والانقباض والتشاؤم ، غير أنه يلهج بذكر نفسه ويمجدها بطريقة مألوفة في الفخر كقول سعية بن العريض :

يا ليت شعري حين أندب هالكاً
أيقظن : لا تبعد ، فربت كربة
لا تبعدن فكل حي هالك
ومغيرة شعواء يخشى دروها
ولرب مشعلة يشب وقودها
وكتيبة أدنيها لكتيبة
وإذا عمدت لصخرة أسهاتها
إن امرأ أمن الحوادث جاهلا
ولقد أخذت الحق غير مخاصم
ماذا ترثيني به أنواحى
فرجتها بيسارة وسماح
لا بد من تلف ، فبن بفلاح
يوماً رددت سلاحها بسلاحى
أطفأت حر رماحها برماحى
ومضاغن صبحت شر صباح
أدعو بأفصح مرة ورباح
ورجا الخلود كضارب بقداح
ولقد دفعت الضيم غير ملاح

فع إحساسه بالخوف والحزن لدنو أجله ، راح يتمجد بتفريج كربة المحتاج مما تجود به نفسه السمحة من ماله الوفير ، وافتخر بمقاومة الخيل المغيرة بالسلاح وبإطفاء نار الحرب كلما شب ضرامها ، وبقيادته كتائب قومه ، وانصياعهم لأوامره وبأنه من قوته وصلابته بحيث يفتت الصخور ، ويدعو من عينه على الفوز والنجاح وأخيراً يعتز بقدرته على أخذ حقه بدون مخاصمة أو مقاومة ، لأنه قادر أيضاً على دفع الضيم فعلا لا قولاً .

وتلك صفات كان العربي من قديم يرددها ، وتأثر بها سعية فتمدح بها ، وإذا كان يستقبل الموت فإنه يرجو أن يكون تأيينه مما تذكره النوائح إشادة بمفاخره التى تبقى على الأيام ذكره ، وتعل بين الناس من قدر قومه ، وتنفخ فيهم من روحه .

ويقترّب شعر سعية من شعر الشعراء العرب في الصياغة كذلك ، كماستعمال بعض أساليب الرثاء في قولهم : لا تبعد ، والانتقال من غرض إلى غرض على وجه من « الاقتضاب » مستعملين (واورب) كما في قوله : (ومغيرة شعواء) ، هذا مع إحساسنا بقوة أسلوبه وتلاحم نسجه مما ينبىء عن صدق مشاعره .

وهكذا غلب عليهم البكاء أحياء وأشباه أحياء ، لأن الخوف من المصير متمكن من قلوبهم ، فذهبوا في تبديده كل مذهب ، كما صنعوا بالفخر وكأن مرثيهم لأنفسهم ، ولبنى جنسهم « حائط مبكى » . كلما نزلت بهم مصيبة ناءوا بحملها ، وأية مصيبة أكبر مما حاق بهم يوم أبى جبيلة ، ويوم مالك بن العجلان في الجاهلية ، فقد كانت مذيجة جعلتهم يرددون القول فيما بعد : كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى اسرائيل . وسرى فيما بعد ما صنع الله بهم ، وما سلط عليهم من غضبه ونقمته زمن البعثة ، وانتصار دعوة الإسلام وانتشارها .

(٣)

شعراء اليهود في صدر الاسلام

لم تنته بعد قصة البكاء ، منذ فتنا وذلوا واستضعفوا في تلك الأرض ، وقد لجأوا إلى الأوس والخزرج يتعززون بهم جواراً وولاء ، فبعد أن كان هؤلاء الأوس والخزرج يتنزلون في عفاء من الأرض ، ومع الأهليين في قراهم ، وبعد أن لم يكن لهم غير النخل اليسيرة ، وما يستنبت من الأرض الموات وبعد أن كان لليهود الأموال وسكنى الآطام ، والأمر والنهى ، وإيواء من رضون عن إيوائه . تبدلت الحال منذ أن ضيق عليهم في الجحش من الجبشة ، وبعد أن نكبتهم أبو جبيلة الغساني الخزرجي ومالك بن العجلان في الشمال ، وكذبهم كلما صرح الشر لهم ذهبوا يتوددون إلى الجحشان من أبناء (قبيلة) الغسانيين وإلى غيرهم من مزينة وعطفان ، ولم يياسوا من أمرهم كل اليأس ، ماداموا يمتلكون قوى الخاتلة والكيد ، ومن ثم راحوا يلتمسون الخرج كلما سدت السبل في وجوههم ، وقد وجدوا أن لا يخرج لهم إلا أن يوقعوا العداوة والبغضاء بين الأوس والخزرج ، وسرعان ما هبت رياح الفتنة في نواحيهم بما أثارت اليهود من أيام « فارغ » و« الرعل »

حتى صارت إعصاراً يوم «بعث» وكلها مواضع في نواحي يثرب (١) ، وكانت بعث من أموال بني قريظة ، فيها مزرعة لهم يقال لها (قورا) ، وقد أنهكت الأوس كما أنهكت الخزرج وكادت تنهزم الأوس لولا استناتها فانهمت الخزرج ، وأثنى فيهم حتى صاح صائحهم : « يامعشر الأوس : أسجحوا ولا تهلكوا إخوانكم ، فجوارهم خير من جوار الثعالب » (٢)

وليس غريباً أن تنهاى الأوس عن الإثخان في الخزرج بينما تمنع قريظة والنضير في سلبهم ، ثم انتهى ذلك اليوم ، وقد استعادت اليهود بعض ما فقدته من هبة وكان عليهم أن يحرسوا الحرص كله على الوفاء بأحلافهم ، وكانوا فريقين حتى جاء الإسلام . أما (بنو قينقاع ولفهم فكانوا حلفاء الخزرج ، وأما النضير وقريظة ولفهم فكانوا حلفاء الأوس) (٣) يظهر كل حليفه ، إلا أنه لما ضاق أبناء « قبيلة » ذرعاً بالخلاف وسفك الدماء ، واستشعروا صلة الرحم الجامعة ، والدم العربي ينبض في عروقهم - تهادنوا وتواصلوا ، وكادوا يجتمعون على رجل منهم قيل إنه (هو ابن أبي الخزرجي) لولا أن هداهم الله بالإسلام ، وأعزمهم به ، فأجابوا الرسول إلى ما دعاهم إليه ، وصاروا أنصاره وأصحاب دار هجرته ، وقد أسلم فيمن أسلم كبارهم وسادتهم ، وأصبحوا بنعمة الله إخواناً ، وازدادوا بالإسلام قوة ومنعة ونعموا بالطمأنينة والسلام والأخوة في الله ، ولكن هل يتوقع أن يخضع اليهود لصاحب الدعوة الجديد ، وهو ليس (مسيحيهم) المنتظر من بني إسرائيل ؟ ألا إنهم سرعان ما شبت في صدورهم نيران الحسد والبغضاء ، فبيتوا له ، وكادوا لأمره منذ تظاهروا بوجه ، في محاولة منهم لاستدراجه ، وقد رأوا منه سماحة وتلطفاً لهم عندهما كتب لهم كتاب أمان وذمة عاجدهم فيه وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم ولهم ، ولكنهم ما لبثوا أن تخوفوا المصير ، وتحسسوا طريق الخيانة والغدر ، واستخدام أساليب الكيد والمكر ، وكان ما كان مما تحفل به كتب السيرة والتاريخ فقد نصب أخبارهم للرسول العداوة بغياً وحسداً من عند أنفسهم ، وتعتوه بإثارة

(١) قيل أن « رعل » اسم اطم من أطام المدينة وكذا فارغ (مراد الاطلاع المجلد الثالث حرف الفاء) .

(٢) الأغاني ٦٨/١٧ وما بعدها ط . بيروت ومعنى أسجحوا : أحسنوا العفو .

(٣) سيرة ابن هشام ٥٤٠/١

ألوان من الجدل . ولبس الحق بالباطل ، والمبالغة في إظهار روح السناد والإصرار على إنكار رسالته ، وصد الناس عن دينه ، ولكنه كان غير يائس من إبلاغ ما أنزل إليه من ربه ، عندما كان يتوجه إلى (مدراسهم) ، فيأبون عليه ، ويردادون كفراً ومقتاً وإنكاراً لدعوة الأنبياء من غير بنى اسرائيل ، ثم بلحوا واستكبروا استكباراً حين ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وتمادوا حين جحدوا بنبوة عيسى عليه السلام وتهجموا على ذات الله (١) - سبحانه وتعالى - وظلت الحال كذلك نحو ثمانية عشر شهراً ، قضاهما الرسول (عليه السلام) في تكوين أمه واحدة وتأسيس دولة مؤمنة في المدينة ، حتى جاء أمر الله بمدافعة هؤلاء المعتدين ، وقطع الطريق على المشركين ، وأذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، فقد أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، ثم ووجهوا بأصحاب عصبية دينية وعنصرية لا يؤمنون بغير القوة ، ولا يخضعون إلا لمن يأخذ على أيديهم ، ويرد عليهم كيدهم ويقتلهم تقتيلاً أو ينفيمهم من الأرض ، ليمضى في أداء رسالته ، ويعلى كلمة الله ويتم نوره ، وهكذا فعل بهم « محمد » بعد أن عرف أمورهم ، وبطن من أخبارهم وما نقضوا من ميثاقهم ، وما زين لهم الشيطان من أعمالهم وأقوالهم ، عندما تناول سفهاؤهم وشعراؤهم الرسول وأصحابه بالأذى وفحش القول ، وكادوا للمؤمنين بالتغزل في نسأهم ، حتى أثاروا حميتهم عليهم فاستدرجهم المؤمنون بالمكر ، وقابلوا كيدهم بالكيد ، وملأوا قلوبهم بالخوف من يوم أن دبروا مقتل (كعب بن الأشرف) وقد كان زعيم قومه ، ومثير الفتنة ضد الرسول وصحبه منذ غزوة بدر ، وقد أظهر من الفزع لما أصاب قريشاً من مقتلة عظيمة قائلاً : (هؤلاء أشراف العرب ، وملوك الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خبير من ظهرها) ومضى نحو مكة مثيراً للمشركين ضد الرسول ، لا يبالي غير ماتدعوه إليه نفسه الخبيثة ، وطبعه القادر ، وحسده وحققه ، وخوفه أن يصيبه مثل ما أصاب أباءه الأولين من قبل قيام دعوة السيد المسيح - عليه السلام - وتنكيل قياصرة رومة بهم حتى قضوا عليهم في أرض المعاد ، وصاروا بدداً في الأرض ، ثم لا حقهم أصحاب النصرانية ونكلوا بهم ، كما فعلوا بمتهودة اليمن ، خشى كعب ذلك وتوقعه من صاحب الرسالة

(١) انظر سيرة ابن هشام الصفحات ٥٦٣/١ ، ٥٦٦ ، ٥٦٨ ، ٥٧١

الجديدة ، وقد كان يظن به شراً ، ولا يستبطن ثقة فيه وخيراً . ومن أجل ذلك توجه إلى من بقى من سادة قريش ليحرضهم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وينشد الأشعار ، ويبكى أصحاب القلب بقوله :

طحنت رحي بدر لمهلك أهله
قتلت سراة الناس حول حياضهم
كم قد أصيب به من أبيض ماجد
طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت
ويقول أقوام أسر بسخطهم
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا
صار الذي أثر الحديد بطعنة
نبئت أن بنى المغيرة كلهم
وابنا ربيعة عنده ومنبه
نبئت أن الحارث بن هشامهم
ليزور يثرب بالجموع وإنما

ولثل بدر تستهل وتدمع
لا تبعدوا ، إن الملوك تصرع
ذى بهجة يأوى إليه الضيع
حمال أنقال يسود ويربع
أن ابن الأشراف ظل كعباً يجزع
ظلت تسوخ بأهلها وتصدع
أو عاش أعمى مرعشاً لا يسمع
خشعوا لقتل أنى الحكيم وجدعوا
ما نال مثل المهلكين وتبع
فى الناس بينى الصالحات ويجمع
يحمى على الحسب الكريم الأروع

إن مقتل كعب بن الأشرف - وهو الشاعر الفارس ، والزعيم حليف الوثنية ضد الرسالة والرسول - كان بداية النهاية لليهود واليهودية فى شبه الجزيرة العربية ، ومنذ مقتله أصبحوا وقد توجسوا خيفة ، واستشعروا الذلة والمسكنة كما تردد فى قول كعب بن مالك الأنصارى :

ففودر منهم كعب صريعاً
فدلت بعد مصرعه النصير
ومن أجل ذلك ، لجأوا إلى التمكن بالحصون كلما حزبهم أمر ، أو نقضوا عهداً بينهم وبين الرسول ، وقد وجدنا بنى النصير - قوم كعب بن الأشرف - دبروا مكيده لقتل النبي ، ففضى الله بإجلأهم ، فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى (أذرعات) بالشام وعندئذ فرح المؤمنون بنصر الله وفتحها ، فقد كان ابن الأشرف حقيقاً بأن يصرع ، وهو الذى استهلّت دموعه لمهلك السادة من قريش بيد داعياً

أن لا يبعدوا ، لأنهم الأشراف الأمائل ، ومأوى البؤساء إذا أزم الشتاء ، وهم حاملو المغارم وهم الرؤساء أصحاب المغانم ، لذلك كان جزع كعب عليهم بزعمه ، فقد أراد برئائهم أن يؤلبهم على قاتليهم ، وأن يثأروا لأنفسهم ، وقد خشعوا لقتلاهم ، وجدعوا أنوفهم ، ولم يبق إلا أن يزوروا يثرب بالجموع ليحموا أحسابهم . ويبقوا على أنفسهم .

وفرح المسلمون بمقتل كعب ، لأنه كان لسان سوء ، وداعية فتنة ، كما كان تياهاً وغبنا وفتوته ، وهو القاتل لمرسه ، وقد خشيت عليه يوم مصرعه :

« لو يدعى الفتى لطفنة لأجاب » . ومثله كان يمضى في عداوته لله ولرسوله والمؤمنين إلى أبعد غاية إلا أن تكافحه القوة ، ليخلو الطريق لدعوة الحق أو تبلغ مداها . ومن أجل ذلك راح بعض شعراء المسلمين يعاتبون عن الفرحة لمصرعه ، ويمجدون القوة المؤيدة للحق ، ويفخرون بمثل قول حسان :

لله در عصابة لا قيتهم يابن الحقيق وأنت يابن الأشرف
حتى أتوكم في محل بلادكم فستوكم حتماً ببيض ذسف
مستصغرين لنصر دين نبيهم مستصغرين لكل أمر مجحف (١)
ويمثل قول شاعر آخر مدافعاً عن الرسول ، ومخوفاً لليهود ، ومنذراً لهم بمصير

مثله :

ألستم تخافون أدنى العذاب	وما آمن الله كالأخوف
وأن تصرعوا تحت أسيفه	كمصرع كعب أبي الأشرف
غداة رأى الله طغيانه	وأعرض كالجمال الأحنف
فأنزل جبريل في قلبه	يوحي إلى عبده ماظف
فدس الرسول رسولا له	بأبيض ذى هبة مرهف
فباتت عيون له معولات	مق ينم كعب لها تذرف
وقلن لأحمد ذرنا قليلا	فإننا من النوح لم نشف

(١) السيرة لابن هشام ٦١/٣ - وذفف بمعنى سريعة القتل .

فخلاههم ثم قال اظعنوا دحورا على رغم الآنف
وأجلى النضير إلى غريبة وكانوا بدار ذوى زخرف
إلى أذرعات رداق وهم على كل ذى دبر أعجف (١)

وعرفنا تلك الأحداث التي نزلت بهم في مدينة الرسول بشعراء آخرين منهم سماك اليهودي الذي هاجه مقتل كعب بن الأشرف، وإجلاء بنى النضير، وكان هو من قريظة، - وهما الكاهنان من ولد دارون (٢) (عليه السلام) ومن ثم راح يتوعد ويهدد، ويرد على شعراء المسلمين، ويكفي ابن الأشرف ومن قتل من بنى النضير، وينعى عقور النخيل، صنيع من يستهض الهمم للدفاع عن الأنفس والثرات، ويتنظر مما يرجو أن تدور الدوائر على من قتل النضير وحلفاءها، ومن عقور النخيل قبل قطفها، ولكن أئى يستجاب له أو تتحقق أمانيه في قوله :

إن تفخروا فهو فخر لكم بمقتل كعب أبى الأشرف
غداة غدوتم على حنفة ولم يأت غدراً ولم يخلف
فعل الليلالى وصرى الدهور يدىل من العادل المنصف
بقتل النضير وأحلافها وعقور النخيل ولم تقطف
فإن لا أمت نأتكم بالقسا وكل حسام معاً مرهف
بكف كفى به يحتمى متى يلق قرناً له يتلصف
مع القوم « صخر » وأشباعه إذا غاور القوم لم يضعف
كليت بترج حى غيـله أخى غابة هاصر أجوف (٣)

وقد كذب اليهودى في قوله عن كعب : إنه (لم يأت غدراً ولم يخلف) وتمنى الأمانى على الليلالى وهو يعرض - فيما قيل - بالرسول (العادل المنصف) ، وغفل

(١) سيرة ابن هشام ٢٠٦/٣ - والجمل الاحنف : المائل الى ناحية . أبيض ذو هبة مرهف : سيف ذو اهتزاز قاطع - ذو دبر اعجف : جمل مجروح هزيل . هذا وقد ورد في تفسير قوله تعالى : « يؤمنون بالجبت والطاغوت » : الجبت : حى بن أخطب ، والطاغوت : كعب بن الأشرف . (معانى القرآن للفراء) ٢٧٣/١ في تفسير سورة النساء . الآية (٥١) .

(٢) الأغاني ٩٧/٢٢

(٣) سيرة ابن هشام ٢٠٨/٣ - ترج : مأسدة بنواحى نجد - الأجوف : العظيم الجوف .

عن الله الذي كتب عليهم الجلاء ، ولهم في الآخرة عذاب النار ، وأنى له ما توعد به ، وقد قال الله فيهم : (لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) .

ومن أجل ذلك راح يستنصر بأبى سفيان وشيعته ، ويستصرخ بالوثنيين على المؤمنين أصحاب دعوة الحق والتوحيد ، أليس ذلك عجيباً من أهل التوراة التي وصتهم كثيراً بمحاربة عبادة الأصنام ، ومخاصمة عباد الأوثان ؟ وقد نكر جانبهم هذا واحد منهم هو « إسرائيل ولفنسون » في كتابه (تاريخ اليهود في بلاد العرب) .

إن مقتل كعب بن الأشرف - كان إيذاناً بحرب بني النضير ، وجاء الأمر بإجلائهم تنفيذاً لحكم الله ، الذي قذف في قلوبهم الرعب ، وكتب عليهم الجلاء لأنهم شاقوا الله ورسوله ، « و ليس معقولاً أن يغضب الرسول من بني النضير دون أن يكون هناك معاهدة تلزم الفريقين بتنفيذها » (١) ، ولعل ما قاله كعب بن مالك الأنصاري في قصيدته ما يوضح الأسباب والظروف التي أحاطت بمقتل كعب ابن الأشرف وإجلاء قومه :

لقد خزيت بغدرتها الحبور	كذاك الدهر ذو صرف يدور (٢)
وذلك أنهم كفروا برب	عزیز ، أمره أمر كبير
وقد أوتوا معاً فهماً وعلماً	وجاءهم من الله النذير
نذير صادق أدى كتاباً	وآيات مبينة تنير
فقالوا ما أتيت بأمر صدق	وأنت بمنكر منا جدير
فقال : بلى لقد أديت حقاً	يصدقني به الفهم الخبير
فمن يتبعه يهد لكل رشد	وممن يكفر به يجز الكفور
فلما أشربوا غدرًا وكفراً	وحاد بهم عن الحق الثفور
أرى الله النبي برأى صدق	وكان الله يحكم لا يحور
فأيده وسلطه عليهم	وكان نصيره نعم النصير
فغود منهم كعب صريعاً	فذلت بعد مصرعه النصير

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٣٥

(٢) الحبور : هم الأجبار علماء دينهم .

على الكفين ثم وقد علته
بأمر محمد إذ دس ليللا
فما كرهه فأنزله بمكر
فتسلك بنو النضير بدار سوء
غداة أتاهم في الزحف رهواً
وغسان الحماة مؤازروه
فقال : السلم ، ويحكم ، فصدوا
فذاقوا غب أمرهم ويالا
وأجلوا عامدين لقينقاع
بأيدينا مشهورة ذكور
إلى كعب أخا كعب يسير
ومحمود أخو ثقة جسور
أبارهم بما اجزموا المير
رسول الله وهو بهم بصير
على الأعداء وهو لهم وزير (١)
وحالف أمرهم كذب وزور
لكل ثلاثة منهم بعير
وغودر منهم نخل ودور (٢)

وهكذا قص كعب بن مالك خبر تلك الواقعة في سياق من البيان المشرق بنور اليقين ، والمتأثر بأعظم حظ من البيان القرآني وهدية ، حاملا على أجار اليهود حملة صادقة لأنهم كفروا بالله العزيز مع أنهم ممن أوتوا الكتاب والفهم والعلم ، وقد جاءهم النذير فكذبوه ، وهم الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويعرفون أنه إنما يبلغ رسالة ربه ، فن اهتدى فلنفسه ومن كفر فعليها ، فما ازدادوا إلا غدراً وكفراً وتفوراً ، فجزاهم بما غدروا وكفروا . وسلط عليهم أقرب الناس منهم ممن هدى الله ، فيها هوذا أخو كعب من الرضاع « أبو نائلة » يمكرو به ، وهام أولاء قومه بنو النضير بدار سوء ومذلة فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب فراحوا مذعورين يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ، وذاقوا وبال أمرهم عندما أجلوا إلى حيث إخوان لهم من يهود بني قينقاع تاركين وراءهم مغنم كثيرة مما أفاء الله على رسوله من نخل ودور نعم بها الفقراء من المهاجرين .

وقد أثار حملة كعب بن مالك ثائرة شاعرهم سماك اليهودي ، فضى يرد عليه ويبيكى ابن الأشرف وقومه بنو النضير ، وهكذا استمر البكاء منهم وعليهم ، وعلا

(١) يقصد بفسان : الأنصار من الأوس والخزرج (انظر فتوح البلدان ١٥/١ وما بعدها) .

(٢) سيرة ابن هشام ٢٠٩/٣ - ١ وعندما أحلى بنو قينقاع أقاموا فترة بوادي القرى ثم احتملوا وساروا صوب الشمال حتى بلغوا أذرعات ببلاد الشام على الحدود من أرضي المعاد .

صراخ شاعرهم لمقتل كعب (سيد الأخبار) وهو وصف لا يليق به ، وإن كان يعبر بصدق عن حقيقة من وصفوا بالأخبار ، وإن كثيراً منهم ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله ، فباءوا بسخط من الله ، وعندما مكر وابتال الرسول مكر الله بهم . . . وغودر ابن الأشرف تسيل منه الدماء على مدارعه ونكبت اليهود من بني النضير وقريظة بموته ، ولم ينفع تهديد سماك ، ولا ما أراد بيكائه من إثارة حميتهم ، واستنفارهم للأخذ بثأره من قاتليه ، وذلك في قوله :

أرقت وضافني هم كبير	بليل غيره ليل قصير
أرى الأخبار تنكره جميعاً	وكلهم له علم خبير
وكانوا الدارسين لكل علم	به التوراة تنطق والزبور
قتلتم سيد الأخبار كعباً	وقد ما كان يأمن من يجير
تدلى نحو محمود أخيه	ومحمود سريرته الفجور
فغادره كأن دماً نجيعاً	يسيل على مدارعه عبير
فقد ، وأبيكم وأبي جميعاً	أصيت إذ أصيب به النضير
فان نسلم لكم نترك رجلاً	بكعب حولم طير تدور
كأنهم عتأر يوم عيـد	تذبح وهي ليس لها نكير
بيض لا تليق لمن عظماً	صوائى الحد أكثرها ذكور
كما لا قيم من بأس « صخر »	بأحد حيث ليس لكم نصير (١)

وقد مضى على أثر الجاهليين في نكء الجراح ، فعير المسلمون بما وقع يوم أحد ، وكان كعب بن مالك أول مبشر بنجاة الرسول حينما نادى بأعلى صوته : يامعشر المسلمين ، أبشروا ، هذا رسول الله ، فأشار إليه الرسول ليسكت ، وكان لصيحة كعب أثرها عند قريش ، وقد أشاعوا موت النبي ، حتى إن أبا سفيان (صخر) راح يفتنقه في القتلى ، ولكن الله سلم ، وما لبث المسلمون أن استردوا اطمئنان نفوسهم ، وأعادوا الثقة فيهم ، ثم كان ما كان من خبر بني النضير ، حين نكثوا

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢١١ - ضافني : نزل بي كالضيف - والمدارع جمع مدرعة : ثوب من صوف أوجبة مشقوقة المقدم - العتائر جمع عترة : ذبيحة كانوا يذبحونها لآلهتهم في الجاهلية - لا تليق : لا تبقى - والمراد بصخر أبو سفيان.

عهدهم وتأمروا على حياة الرسول ، وكأنهم أرادوا أن ينتقموا لمقتل كعب بن الأشرف ، لولا أن الرسول جاءه خير السماء بما أرادوا من الغدر به ، فجوزوا عليه بإجلأئهم عن المدينة ، فنههم من قصد الشام ومنهم من استقر بخير من أمثال سلام ابن أبي الحقيق أخى الربيع الشاعر ، وحيى بن أخطب ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وكلهم من القادة الذين لم ينسوا ما أنزل الله بهم من عذابه ، وما أوقع عليهم المسلمون من عقاب ، فراحوا بدوافع من الحقد والحسد وطلب الأثر يحرصون قريشاً ولغهم وغطفان ومن تبعهم ، وقد أجمعوا على حرب الرسول ، وجمعوا جموعهم يوم الأحزاب ، وواعدهم اليهود بتأييدهم والمقاتلة معهم ولكن الله نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وجاء أمر الله لرسوله بالمسير إلى بنى قريظة بعد أن أفلح حبي بن أخطب في حملهم على نقض ميثاقهم ، وقطع يد المعونة عن أهل يثرب ، وقد كان ذلك من شروط موادعتهم للرسول والمسلمين وانضمت بذلك إلى الأحزاب ، بل قاتل المتعصبون في صفوفهم ، فحاصروهم الرسول حتى جهدهم الحصار (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصبيهم ، وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأمواظهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديراً) (١) ، وأنفذ الرسول فيهم حكم سعد بن معاذ الموافق لحكم الله ، بأن تقتل الرجال ، وتقسّم الأموال وتسبى الذراري والنساء (٢) ، وأتى بحبي بن أخطب رأس الفتنة فيهم ، وقد غلت يده إلى عنقه بحبل ، مبدئياً جلدأ في قوله يخاطب الرسول وهو يساق إلى الموت : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يخذل . ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، أنه لا بأمر بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى اسرائيل ، ثم جلس فضربت عنقه (٣) ، ومن ثم راح شاعر اليهود جبل بن جوال الثعلبي يبكي حبي بن أخطب أول الأمر ، ومضمناً مقالته السابقة بيتين من شعره هما :

(١) سورة الاحزاب الآيتان ٢٧ : ٢٨

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٢٤٤/٣ وما بعدها .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٥١

لعمر ك ملام بن أخطب نفسه ولكنه من يخذل الله يخذل
لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها وقلقل يبغى العز كل مقلقل

وكان جبل هذا متبوعاً من عرب غطفان ، فهو ينتسب إلى بني ثعلبة بن سعد
ابن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان ، ولعله كان من صنائعهم فبكاهم كما
كانوا سيكون إخوانهم من بني النضير وبني قينقاع ، بل إن كثيراً من الشعر قيل
في هذه المناسبة ، فقد روى من شعر حسان بن ثابت قوله في يوم بني قريظة :

تفاقد معشر نصرنا قريشاً وليس لهم بيلدتهم نصير
هم أوتوا الكتاب فضيعوه وهم عمى من التوراة بسور
كفرتم بالقران وقد أتيتم بتصديق الذي قال النذير
فهان على سراة بني لسوى حريق بالبويرة مستطير (١)

والملاحظ أن الشعر الإسلامي في تصوير هذه المعارك ، وتسجيل هذه الأحداث
قد لجأ إلى تحليل المواقف وذكر الأسباب ، وتحديد الغايات ، فهو بمثابة وثائق
تاريخية لإثبات هذه الوقائع ، وذكر ملبساتها وتفسيرها ما اتسع لذلك مجال بيانه
إلى جانب ما لحظناه فيه .

ولم يسكت جبل بن جوال ، فقد هاجه ما قال شعراء المسلمين ، وبخاصة
حسان عندما أجابه وبكى النضير وقريظة في قوله :

ألا يا سعد سعد بنى معاذ لما لقيت قريظة والنضير
لعمر ك إن سعد بنى معاذ غداة تحمّلوا لحو الصبور
فأما الخزرجي أبو حباب فقال لقينقاع لا تسيروا
وبدلت الموالي من حضير وأسيداً ، والدوائر قد تدور
وأقفرت البويرة من سلام وسعية وابن أخطب فهمى بسور
وقد كانوا ببيلدتهم ثقالا كما ثقلت بميطان الصخور
وكل الكاهنين وكان فيهم مع اللين الخضارمة الصقور

(١) البيرة ٢٨٥/٣ - ومعنى تفاقد الدعاء عليهم بالفقء - والبويرة موضع
بني النضير خارج المدينة (تفسير بشر) - مرآة الاطلاع ٢٣٢/١

وجدنا المجد قد ثبتوا عليه بمجد لا تغيبه البـدور
أقيموا ياسرارة الأوس فيها كأنكم من الخـزاة عـور
تركتم قدركم لا شئ فيها وقدر القوم حامية تفور^(١)

فهو يعرض بسعد بن معاذ الأوسى حليف بنى قريظة ، ويندد بحكمه فيهم ، ويقارن بين موقفه من حلفاء قومه وبين موقف عبد الله بن أبى الخزرجى حليف يهود بنى قينقاع الذى طلب إلى الرسول أن يحسن فى مواليه منهم ، وأن يبقى عليه فى بلادهم ، وإن لم يكن قد استجيب له فيهم إذ أخرجوا من ديارهم ، مشيراً إلى قول عبد الله بن أبى للرسول : إني والله أخشى الدوائر ، ومع ذلك بدلت الموالى وأفقرت محلة النضير بالبويرة حتى صارت بوراً بعد أن كانت عامرة بأهلها ومنهم سلام بن أبى الحقيق ، وابن أخطب ، وسعية .

ثم مضى الشاعر يبيكهم - مع ملاحظة البكاء الدائم عليهم وعلى أبناء الكاهنين جميعاً من قريظة والنضير ، ويهجو أشراف الأوس بما يدل على حقه وسخطه عليهم وقد خذلوهم ، وحكموا فيهم بما اعتقدوا أنه الحق والعدل الذى يبقى على المسلمين حياتهم ويمكن لهم فى الأرض .

وحتى لمثل جبل أن يبكى قوماً كانوا أوليائه ، مع أنهم ثبتوا على الخيانة والغدر ، وأقاموا على مناوأة كل من ظنوا به شراً ، أو توقعوا منه أن يتألم بمكروه ، وهم أحرص الناس على حياة ملوئها الخداع والمكر ونقض المواثيق فى سبيل البقاء والتسلط ، وقد كانت تلك الغاية تبرر كل الوسائل التى بلأوا إليها وعرفت بهم وعرفوا بها منذ أن قر فى نفوسهم أنهم شعب الله المختار ، ومنذ أن باءوا بغضب من الله وضربت عليهم الذلة والمسكنة من عهد بختنصر إلى عهد تيطس وهادريان إلى عهد أبى جبيلة الغسانى ومالك بن العجلان ، حتى كان عهد رسول الله الذى أخذ يتعقبهم غازياً فى آخر حصونهم بنخير ، وفى خلال تلك العهود تكسر ما صلب من رقابهم ولم يبق منهم إلا صوت خافت من أصوات الشعر هو

(١) السرة ٢٨٥/٣ - ومعنى ميظان : جبل من جبال المدينة كان به بئر ماء - ومعنى البدور الأيام والشهور .

صوت اليهودى الحميرى (مرحب) يكاد يلفظ أنفاسهم الأخيرة في فخره الخائف
يوم أن تم القضاء عليهم - غير من عودوا - وقد طلع على المسلمين من حصنه
شاكى السلاح مرتجزاً بقوله :

قد علمت خبير أنى مرحب شاكى السلاح بطل مجرب
أطعن أحياناً وحيناً أضرب إذا الليوث أقبلت تحرب
إن حياى للحمى لا يقرب^(١)

وعندما نادى في القوم من يبارز؟ أجابه كعب بن مالك :

قد علمت خبير أنى كعب وأنى متى تشب الحرب
ماض على الهول جرىء صلب معى حسام كالعقيق غضب
بكف ماض ليس فيه عتب ندككم حتى يذل الصعب^(٢)

ومضى له محمد بن مسلمة الموتور الثائر ، وأسكته ، وأخرس لسانه إلى الأبد ،
كما سكتت من قبل السنة جرى على عذباتها فخر الخائف ، وبكاء الواجف ،
وتحريض الحريص ، إذ (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من
العذاب أن يعمر) (٣) .

ثم يبقى من بعد ذلك ما جرى على ألسنتهم من فنون القول الأخرى كالغزل ،
ومن الطبيعي ألا يصدر عنهم - وهم من وصفنا - صدوراً ينبىء عن عاطفة صادقة ،
أو هوى غلاب يدفعهم إلى التعبير عن خلجات نفوسهم ، ولواعج أشواقهم ،
وفرط حنينهم مثلما يعبر العاشق في حرارة وصدق ، وإحساس بلذة الوصل ،
ولذعة الفراق أو الحجر . إن ما بقى لهم من شعر في الغزل قليل ، وربما ضاع فيما
ضاع من شعرهم ، إذ لم تبق لهم قصائد كاملة أو مطالع قصائد إلا هذا اليسير الذى
روينا أكثره .

نقول هذا ونحن نستقرئ ما قالوه من غزل فلا نجد إلا بعض المقدمات لشعر
مفقود كقول سعية :

(١) سيرة ابن هشام ٣/٢٤٤ وما بعدها - ومنى تحرب : أى تقبل مفضة .
(٢) السيرة ٣/٢٤٨ ، ومعنى العقيق العضب : السيف اللامع كالبرق
الفاطع ، ومعنى العتب : التقص والفساد .
(٣) سورة البقرة من الآية (٩٧) .

يادر سعدى بأقصى تلمعة النعم حيث داراً على الإقواء والتقدم
وما يجزعك إلا الوحش ساكنة وهامد من رماد القدر والحمم
عجنا فما كلمتنا الدار إذ سلت وما بها عن جواب نلت من صمم (١)

وقد قال عنها أبو الفرج : إنها مما يغنى فيه ، ولكن هل ينفعها الغناء إذا فقدت صدق التعبير عن حال صاحبها ؟ إننا لا نكاد نخرجها عن الإطار التقليدي للمقدمة الطللية التي تحدثت عن الدار المقوية الخالية وما حلت بها من وحوش بعد رحيل ساكنها ، وقد بقيت بعض الآثار اليسيرة كرماد القدر والحمم ، وهي كل ما احترق من النار ، ثم هذا السؤال ، والعنى عن الجواب ، ثم تحيتها على سبيل الوفاء : كل ذلك وغيره مما يتكرر في كثير من المقدمات الطللية ، وردده شعراء الجاهلية حتى صارت تقليداً ، ونمطاً ثابتاً ، ولا يدل في كثير من الأحيان على عاطفة صادقة . ولا يعبر عن تجربة حقيقية ، وإنما هي الرغبة في الغناء ، وتهيته الجلو الشعري للغرض الذي أراد التعبير عنه :

وربما كانت مقدمة النابغة في (رائيته) خير مثال للنماذج المتكررة إذ يقول :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نوى وأحجار
أقوى وأقفر من نعم وغيره هوج الرياح بهابى الترب موار
وقفت فيها سراة اليوم أسألها عن آل نعم أموناً عبر أسفار
فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار (١) .

وإن يكن النابغة قد استوفى عناصرها ، ووقف سعية عند تعداد بعضها تاركاً أهم عناصرها ، وهو وصف تلك الآثار الباقية وتصويرها ، كما نجد ذلك عند كثير من شعراء الجاهلية ، ومما لاشك فيه أن « سعية » لم يعيش بحق عيشة العربي البدوى ، ولم ينبض قلبه بمثل ما نبض به قلب ذلك العربي .

ومن النماذج الأخرى من شعرهم في الغزل قول الريح بن أبي الحقيق :

دور غفت بقري الخابور غيرها بعد الأنيس سواى الريح والمطر

(١) الاغانى ١٩/٣ طبعة ساسى ، ومعجم البلدان ٤٢/٥ (في تلمعة النعم التي قال عنها أنها موضع بالبادية) .
(٢) جمهورية أشعار العرب ص ٥٢

إن تمس دارك ممن كان يسكنها وحشا، فذلك صرف الدهر والغير
حلت بها كل مبيض تراثيها كانها بين كتيان النقا البقر^(١)

وهي أيضاً من أبيات الأصوات المغناة . ومع ذلك لا تكاد تتميز إلا بالقليل
عن أبيات سعية وغير سعية ممن جروا على النمط التقليدي الخالي من الدلالة العاطفية
الصادقة .

أما غزل أبي قيس بن رفاعة في مقدمة قصيدته ، فإنه لم يتجاوز ذكر الحنين
إلى صاحبه والبهج بذكرها ، والكلف بها ، حتى أصبح هزيباً قليل الحركة كأنما
سقى سم حية قاتل لساعته في قوله :

إذا ذكرت أمامة فرط حسين ولو بعدت محلها - غريبت
أكلفها ولو بعدت نواها كأنى من تذكرها حيمت
طليح لا يوب إلى جسمي كأنى سم عاضه سقيت^(٢)

وليس هذا الغزل من النوع الحماسي ، لعدم ملاءمته لفعره في أبياته التالية ،
فهزال جسمه ، وكأنه حم أو سقى السم لا يتفق وما ذكره في قوله :

وذي ضغن كفت النفس عنه وكنت - على مساءته - مقيت
وسيني صارم لا عيب فيه ويمعنى من الرهق التبيت الخ :

ولا ينبغي أول بيت في غزله هذا عن أنه أول القصيدة ، إذ يكاد الشاعر الجاهلي
يلتزم التصريح ، ولولا أنه شاعر من الأوس مهود ما أحسنا صدق اللهجة في هذا
الغزل ، وإن لم يدل على صدق العاطفة ، وإنما هي الصياغة العربية القوية توهمنا
بما لم يكن :

ثم نحس الروح الجاهلي ، والنفس العربية الراغبة في اللذة ، والمتحمسة في
تحصيلها قبل فوت الشباب ، وإدراك الأجل عندما نقرأ غزل الشاعر أبي الذيال
البلوي ، بنسبه العربي في قبيلة (بلي) - وقد تهود من هذه القبيلة من تهود - إذ يقول :

(١) الأغاني ١١٩/٢٢ ط . بيروت - والخابور نهر بالعراق - وسواق
الرياح هي ما تحمله الرياح وتذروه - والتراثب جمع تربية - أعلى الصدر موضع
القلادة .

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٢٤٢

هل تعرف الدار خف ساكنها
دار لبهانة خد لجة
أثت فطالت حتى إذا اعتدلت
فيها ، فأما نقاً فأسفلها
لا الدهر فان ، ولا مواعدها
وعداً محاصياله إلى خلف
هيفاء يلتذها معانقها
تمشى إلى نحو بيت جارتها
نعم شعار الفتى إذا برد الليث
كأن ماء الغمام خالطه
والمسك والزنجبيل عل به
ثم ينتقل مقتضباً هذا الغزل بقوله :

دع ذا ، ولكن رب عاذلة لو علمت ما أريد لم تعد (١)

وقد استوفى في تلك المقدمة كل عناصر المقدمة الغزلية من الحنين إلى صاحبه ، وما تثيره معاهد حبه مما يذكره بها فينصرف إلى وصف محاسنها ويشكو خلف مواعيدها ، ولكن ذلك يزيد تعلقاً بها فيعود إلى ما كان فيه من الحديث عنها ، وعن مشيتها وتنعمها ، وعن اللذة التي يجدها فتاها منها ، وصنيعه هذا يذكرنا بصنيع السابقين من الجاهليين ، فكثيراً ما صوروا المرأة العربية ممثلة الذراعين والساقين ، وشبهوا الأسنان بالبرد ، وعجز المرأة بالكثير وجيدها بجيد الظية ، وريقها بالراح وبماء الغمام ، وطيب ثغرها برائحة المسك ، واستحسنوا رشاقتها ، وجمال قوامها ، وضدور بطنها أو (هيفها) إلى آخر ما كانوا يعجبون به من محاسنها وصفاتها مما جعل للمرأة العربية صورة خاصة ، وملامح بارزة نفتقدناها في

(١) طبقات ابن سلام ص ٢٤٤ - والحجر ديار ثمود في شمال الحجاز بين المدينة والشام والمستوى منه والشمس تمد الروم كذلك - المرأة البهانة الخفيفة المرحلة مع هدوء ورقة وطيب ريح ، الخدجة الممتلئة الذراعين والساقين - أثت : طالت ونمت - النقا : كتيب الرمال - هيفاء : ضامرة البطن - علال الحديث : متابعتة - النجد : التعب والاعياء - كواكب الأسد : من بروج الصيف - غفلة الرصد : نوم الحراس .

المرأة اليهودية التي لم تحظ من الشاعر اليهودي الصريح النسب في يهود بحظ يوضح جمالها ويبرز خصائصها ، وهو شاهد على أنه كان يقلد العربي ، ويسير على نهجه في التعبير والتصوير . وإذا أحسنا بجمال هذا الغزل فلأن الشاعر كما قلنا عربي صريح النسب في (بلى) التي كانت تنزل حول تيماء ، إلا أنه دان بدين اليهود تحت وطأة ظرف من الظروف في أغلب الظن .

ثم استخلص بعض شعراء اليهود الحكمة والوصايا من معاملة الناس وملاحظة التجارب في الحياة اليومية في البيئة العربية ، إلى تدبر عواقب الأحداث وما استمدره من طباعهم ، واتجاد أفكارهم إلى شئون المال بخاصة فقد روى أن سعية بن العريض مر بتجربة أنطقته قوله :

أرى الخلان لما قل مالى وأجحفت النوائب ودعسوى
فلما أن غنيت وعاد مالى أراهم - لا أبالك - راجعسوى
وكان القوم خلاناً لمالى وإخواناً لما خولت دوسوى
فلما شذ مالى باعدوسوى ولما عاد مالى عاودوسوى (١)

وذكر الأصمعي أن سعية كان ينادم قوماً من الأوس يزورونه في أوقات قد ألف زيارتهم فيها ، وحدث أن أغار عليه بعض ملوك اليمن فانتسف من ماله حتى افتقر ولم يبق له شيء ، فانقطع عنه إخوانه وجنوه ، فلما أخصب وعادت حاله وتراجعت راجعوه (٢) ، فقال ذلك مصوراً أعجبه من أخلاق هؤلاء القوم ممن دعاهم خلان المال .

وإن تعجب فعجب قول شريح بن عمران اليهودي عن مؤاخاة الكرام :
آخ الكرام إن استطعت ست إلى إخوانهم سبيلا
وأشرب بكأسهم وإن شربوا بها السم الثميلا
أأسيد إن مال ملكك ست فسر به سيرا جميلا
إن الكريم إذا تروا نحيه وجادات له فضولا (٣)

(١) الأغاني ١١٧/٢٢ طه . بيروت .

(٢) المصدر السابق .

(٣) طبقات ابن سلام ص ٢٣٨ - والسم الثميل : المنقع والغفول جمع فضل : الاحسان والمعروف .

ولكن يذهب عنك العجب عندما تدرك حقيقة ما أُرَادَ بالبيت الأخير ،
وهكذا الحياة عند اليهودى أخذ وعطاء ، والأخذ كما ترى مقدم على العطاء . .

ثم نختم القول بما يوضح مدى تأثير شعرهم بدينهم مدفوعين بعاطفتهم وثقافتهم
فيه ، وستتف عندما روى من شعر منسوب إلى السموئل وإلى أخيه سعية ، وعند
أبيات تروى لأوس بن ذئب (ذبي) القرظي ، وهم من ظهرت بعض الآثار الدينية
في شعرهم المروى الباقي .

فأما السموئل فقد رويت له الأصمعية (٢٣) التي يقول في أولها :

نظفة ما منيت يوم منيت أمرت أمرها وفيها وبيت
كنا الله في مكان خني وخني مكانها لو خفيت
أنا ميت إذ ذاك ثم حسي ثم بعد الحياة للبعث ميت . .

ولم يروى ابن سلام هذه الثلاثة الأبيات وكأنه نكرها ، فاتهمت بالوضع عند
اللاحقين ، وبأنها لا تعدو أن تكون نظماً لبعض آيات القرآن الكريم ، وأحسب
أنه يضاف إلى ذلك ضعف في تأليفها ، وركاكة في نسجها ، فاذا ما بلغنا قوله :

إن حلمي إذا تغيب عني فاعلمي أنني كبير رزيت (١)

التقت رواية ابن سلام ورواية الأصمعي ، وتوثقت عندنا نسبة الأبيات التي

اشتركا في روايتها وهي ، مع بعض الاختلاف :

ضيق الصدر بالحياة لا ينـ قرض فقرى أمانتي ما يقبت
رب شتم سمعته فتصاممـ ست وغى تركته فكفبت (٢)
ليت شعري وأشعرن إذا ما قيل اقرأ عنوانها وقريت (٣)
ألى الفضل أم على إذا حو سبت ، إني على الحساب مقبت
ميت دهر قد كنت ثم حيت وحياتي رهن بأن سأموت

وما رواه ابن سيده (٤) عن أبي سعيد السيرافي أن الخليل في البيت :

(١) يروى « عظيما » عند ابن سلام في الطبقات ص ٢٣٦

(٢) يروى عند ابن سلام : كم فظيع سمعته .

(٣) يروى عند ابن سلام : قروها منشورة فقريت .

(٤) المخصص ٩٥/٣ مما نقل محقق الأصمعيات الأستاذ هارون .

ينفع الطيب القليل من الرزق ولا ينفع الكثير الخبيث
هو لغة قريظة والنضير ، ثم ما روى عن مناقشة الخليل والأصمعي في لغة (الخبيث)
هذه في إبدال الراء تاء في أحرف منها الخبيث ، هو مما يصحح نسبة هذا البيت
أيضاً إلى السمؤل ، مع السكوت عن رواية بقية الأصمعية التي يبدو من أبياتها
المذكورة هنا والمروية هناك أنه متأثر بثقافته الدينية وأبرزها إيمانه بالبعث والحساب
وقراءة صحيفة الأعمال .

وأما تأثر أخيه سعية في شعره بتعاليم دينه وآدابه ، فإن ما روى منه قليل غير
كاف في الدلالة على قوة هذا التأثير ، وإن الجحود الديني تعكسه أبيات أصمعيته
التي أولها :

ألا إني بليت وقد بقيت وإني لن أعود كما غنيت (١)
ويبرز هذا التأثير واضحاً في بيته الأخير وهو :

وأجنب المقاذع حيث كانت وأترك ما هويت لما خشيت
على أن بعض هذه الآداب كان مما يتفاخر به العربي الجاهلي متأثراً بحكمة العقلاء
وبما ورثه من ملة سيدنا إبراهيم والأديان الأخرى . .

ثم يروى عن أوس بن دقن القُرظي أن امرأته أسلمت وفارقتة ، ثم نازعتها
نفسها إليه ، فأنته وجعلت ترغبه في الإسلام فقال فيها :

دعني إلى الإسلام يوم لقيتها فقلت لما : لا بل تعالي تهودي
فنحن على توراة موسى ودينه ونعم لعمرى الدين دين محمد
كلانا يرى أن الرشادة دينه ومن يهد أبواب المرشد يرشد (٢)

وليس غريباً أن يقول : (ومن يهد أبواب المرشد يرشد) ، فقد قال جبي
ابن أخطب حين سبق إلى مصرعه : (ولكنه من يخذل الله يخذل) ، واقتبس جبل
ابن جوال مقالته تلك فقال :

لعمرك ملام ابن أخطب نفسه ولكنه من يخذل الله يخذل

(١) الأصمعية (٢٢) .

(٢) الاغانى ١٠٢/٢٢ وما بعدها ط . بيروت .

وكلتا العبارتين أثر من آثار الدين ، مع ملاحظة أن القرآن كان يتلى وكانوا يسمعونه .

ثم تبقى دعوى أن اليهود قالوا كثيراً من الشعر في الدين وهجاء العرب أضاعه مؤلفوهم (١) . إذ هي فرض لم يتم عليه دليل من الشعر أو التاريخ . أما الشعر فقد علمنا مبلغ حرص الرواة المسجدين والمربدين على رواية أشعار اليهود ، ثم إن ما روى من شعر المشركين واليهود في هجاء المسلمين ينقض هذه الدعوى ، وكذا ما روى في التاريخ من أقوال اليهود في محمد وصحبه ، وهم الذين قال الله فيهم (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) (٢) وكان مما روى من تحديهم وتعنتهم قول قائلهم للرسول مواجهة : أما والله لما لمت نفسي على عداوتك (٣) . وقول آخرين مهديين : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نقرأ من قریش كانوا أعماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس (٤) .

وقد عرض شاعرهم بالرسول في قوله المروى له :

فعل الليلى وصرف الدهور يدبيل من العادل المنصف (٥)

وإذا بطل هذا الفرض فقد ثبت أنهم لم يكونوا غير جماعة من الناس استوطنوا أرضاً فروا إليها هاربين من القتل أو السبي ، أو جاءوا إليها راغبين في العيش والتول والاستقرار : ثم مازالوا يتكاثرون مالا وولداً حتى قويت شوكتهم ، فخطب الناس ودهم ، وحالفوهم . واستنصروا بهم . منذ استردبوهم ، وتقرب بعض العرب منهم فتهودوا ، وتصاهروا معهم . ولما دالت دولتهم وجرى عليهم مثل الذى جرى على آبائهم بفلسطين من قتل وتنكيل ، ذلوا للقوة الجديدة ، وتقربوا إليها مستفتحين بهم ، ومنتسكين بأحلافهم خوفاً ورعباً من المصير المتوقع حين جاء الإسلام ، وتحقق ما أراد الله ورسوله من أنه لا يجتمع دينان في جزيرة

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٢٢

(٢) سورة آل عمران من الآية ١٨٧

(٣) من مقالة حبيب بن أخطب حين مصرعه (السيرة النبوية ٢٥١/٣) .

(٤) من مقالة بنى قينقاع (السيرة ٥٥٢/١) .

(٥) من شعر سماك اليهودى (السيرة ٢٠٨/٣) .

العرب (١). ومنذ كانوا إلى أن أجلوا ساروا على منهج ثابت وتعصب ظاهر لدعوتهم العنصرية من أنهم شعب الله المختار وفي أعماقهم شعور بالاضطهاد والخوف ، فما كان على شعرائهم وزعمائهم إلا أن ينفخوا في أبواق الفخر الكاذب ليقوا على الثقة بالنفس ، والشعور بالعزة والقوة ، التماساً للطمأنينة وانتراع الخوف من القلوب مع استغلال أساليبهم في المكر والكيد والنفاق والذس وإثارة التعرات العصبية بين القبائل المتنافسة تطبيقاً للمبدأ القديم : فرق تسد . ولما أذنت شمسهم بالأقول ، وقد جاء نور الله والعدل والحق شرعوا يترجعون ، ولما ذهبوا مذاهبهم في الكيد والختل مكر الله بهم ، وكتب عليهم الذلة والمسكنة ، وسلط عليهم من لوى أعناقهم ، أو قطع رؤوس الفتنة منهم ، أو أخرجهم من ديارهم صاغرين ، وقد وجدنا الشعر يبكي مجدهم الغابر ، وحظهم العائر كما يبكي رؤساءهم ، وغناهم وسلطانهم ، ثم لم ينفعهم ما أبرقوا به وأرعدوا ولا ما حرضوا عليه ، إذ رأينا الفخر والبكاء والوعيد والتحريض إنما يعبر عن نفسية قلقة خائفة في محاولات لبث الثقة واعتبار الذات دفاعاً عن العنصرية القومية ، ولما فشلت تلك المحاولات توقعوا ما قد أريد بهم وصدقوا فيما توقعوه ، فضوا يرثون ويبكون حتى كثر البكاء وكأنهم أمام (حائط مبكى) آخر ، وما عدا ذلك من شعر قالوه في أغراض أخرى جرى فيها على النهج المطروق ، ولم يصدروا فيه عن تجارب حقيقية أو صدق إلا ما اتصل بحكمة المال ، وبعض ما خلفته تعاليم الدين في نفوس من تأثروا به .

تلك جملة من أخبارهم ، وهذه سبيلهم في الشعر وغايتهم من التغنى به ، وقد حاولت في توضيح الأخبار : وتفسير الشعر أن أعطى القارئ صورة متكاملة ترتبط فيها دلالات هذا الفن بمقومات الحياة التي عاشها اليهود بكل ماورأوه في شبه الجزيرة العربية ، وتفسر مواقفهم المختلفة من الأحداث التي وقعت وتكشف عن الأغراض التي استهدفت .

وأرجو أن أكون قد وفقت ، وكان الله من وراء القصد .

المراجع

- ١ - الأصمعيات : اختيار الأصمى - تحقيق شاکر وهارون .
- ٢ - الأغاني : لأبي الفرج - طبعة ساسى وبيروت .
- ٣ - الأمالى : لأبى على القالى - طبعة دار الكتب .
- ٤ - تاريخ الأدب العربى : لبروكلمان - ترجمة د. عبد الحليم النجار .
- ٥ - تاريخ الأدب العربى : لبلاشير - ترجمة ابراهيم الكيلانى .
- ٦ - تاريخ الآداب العربية : لنالينو - طبعة دار المعارف .
- ٧ - تاريخ العرب العام : لسيدىو - ترجمة عادل زعيتى - طبعة الحلبي .
- ٨ - تاريخ العرب قبل الاسلام (السياسى والدينى) : للدكتور جواد على - طبعة بغداد .
- ٩ - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين : لفيليب حتى - ترجمة جورج حداد - ط ٠ بيروت .
- ١٠ - تاريخ اليهود فى بلاد العرب : لاسرائيل ولفنسون - طبعة القاهرة .
- ١١ - البيان والتبيين : للجاحظ - تحقيق هارون والسندوبى .
- ١٢ - جمهرة أشعار العرب : للقرشى - طبعة المطبعة الأميرية .
- ١٣ - ديوان السمؤل : تحقيق عيسى سابا - طبعة بيروت .
- ١٤ - السيرة النبوية : لابن هشام - تحقيق السقا - طبعة الحلبي .
- ١٥ - شرح ديوان الحماسة ج ١ - للتبريزى .
- ١٦ - طبقات فحول الشعراء : لابن سلام - تحقيق شاکر .
- ١٧ - العقد الفريد : لابن عبد ربه - تحقيق أحمد أمين وآخرين .
- ١٨ - فتوح البلدان ج ١ : للبلاذرى - تحقيق المنجد .
- ١٩ - الفكر الدينى الاسرائيلى : للدكتور حسن ظاظا .
- ٢٠ - قصة الحضارة .. (الشرق الأدنى) : لديورانت - ترجمة محمد بدران .
- ٢١ - الكامل فى التاريخ : لابن الأثير - تحقيق الشيخ عبد الوهاب النجار .
- ٢٢ - الكامل فى اللغة والأدب ج ١ : للمبرد .

- ٢٣- كتاب العبر وديوان المتدا والخبر ج ١ : لابن خلدون - المطبعة الاميرية .
٢٤- الكتاب المقدس - كتب العهد القديم .
٢٥- مرصد الاطلاع : للبغدادي - تحقيق البجاوي - طبعة الحلبي .
٢٦- معجم البلدان : لياقوت - طبعة بيروت .
٢٧- معجم ما استعجم : للبكري - تحقيق السقا وآخرين .

لماذا البحر .

- يقوم على سطح استثناء النهر من دونه الوقوف
على الخصائص الفريدة العامة ، لغة ومضموناً وإيقاعاً .
- لم يف البحر بما ولد به من تخفيه أثمار البحر
مطابقةً نسبك ، لتوشيح الصريح ورفض الزائف .
- تسود شرة مطابفة واضحة .